أثر الخطاب الديني للمملكة العربية السعودية
في تجديد التفسير الصحيح للإسلام
ومكافحة التفاسير الخاطئة

بحث:

أثر الخطاب الديني للمملكة العربية السعودية
في تجديد التفسير الصحيح للإسلام
ومكافحة التفاسير الخاطئة

ورقة بحثية مقدمة إلى:

المؤتمر الدولي لجهود المملكة العربية السعودية

في ترسيخ وتأصيل منهج أهل السنة والجماعة والدعوة إليه

ودعم قضايا الأمتين العربية والإسلامية

الذي أقامته:

(جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض)،

بتاريخ: ٢٦-٢٧/ صفر/ ١٤٣٩هـ، ١٥-١٦/ نوفمبر/ ٢٠١٧م

إعداد: عبد الحق التركماني

نشر موقع الشيخ عبد الحق التركماني

www.turkmani.com

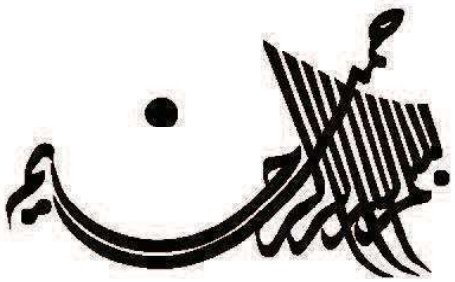
أثر الخطاب الديني

للمملكة العربية السعودية

في تجديد التفسير الصحيح للإسلام
ومكافحة التفاسير الخاطئة

ورقة بحثية مقدمة إلى:
(المؤتمر الدولي لجهود المملكة العربية السعودية في ترسيخ وتأصيل منهج أهل السنة والجماعة والدعوة إليه ودعم قضايا الأمتين العربية والإسلامية)،
الذي أقامته: (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض)،
بتاريخ: ٢٦-٢٧/صفر/١٤٣٩هـ، ١٥-١٦/نوفمبر/٢٠١٧م

إعداد:
عبد الحق التركماني
رئيس مركز دراسات تفسير الإسلام
بريطانيا



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحقُّ المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الهادي الأمين، صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مدخـل:

أما بعد: فقد شرُفتُ بدعوة كريمة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الموقرة للمشاركة في مؤتمرها الدولي: «**جهود المملكة العربية السعودية في ترسيخ وتأصيل منهج أهل السنة والجماعة والدعوة إليه ودعم قضايا الأمتين العربية والإسلامية**»، ولا شك أن هذا المؤتمر كبير بكُبْر المملكة، وجليل بجلالة جهودها، وواسع بسعة تلك الجهود، وعظيم بعظمة الأمة المسلمة. وقد فكرت طويلًا فيما يمكن أن أساهم فيه؛ فبدا لي أن أكتب في «**أثر الخطاب الديني للمملكة العربية السعودية في تجديد التفسير الصحيح للإسلام ومكافحة التفاسير الخاطئة**»، وهدَفي من تناول هذا الموضوع بهذا البحث الموجز؛ أن أُبرز الأثر المهمَّ للمملكة في تصحيح الخطاب الإسلامي في العصر الحديث، وترشيد الدعوة الإسلامية، ومواجهة التيارات والدعوات التي انحرفت عن سواء السبيل، وقدمت تفسيرات خاطئة لحقائق الإسلام ومفاهيمه. وهذا البحث جهد قاصر، ومساهمة متواضعة، لعله يجذب اهتمام الدارسين والباحثين للعناية به، والتوسع في دراسته وبحثه، والله من وراء القصد.

مفهوم الخطاب الديني:

شاع في العصر الحديث استخدام مصطلح «**الخطاب الديني**»، وهو من المصطلحات التي دخلت الاستعمال العربي عن طريقة الترجمة من اللغات الأوروبية، فهو في الإنكليزية: Religious Discourse، وفي الفرنسية: discours religieux، ويقصد به: مجموع المعتقدات والآراء والأفكار والثقافات والموضوعات المختلفة التي

يتم التواصل بها مع الآخر، بالبيان والإيضاح والمناقشة والحوار، من خلال المحادثة الشفهية، أو وسائل الكتابة والإعلام المختلفة كالكتب والبحوث العلمية والمقالات والبيانات الصحفية وغيرها. ويتغير الخطاب بحسب تغيُّر موضوعه ومضمونه ومقاصده وأسلوبه، فيقال ـ مثلًا ـ: الخطاب القانوني، والخطاب السياسي، والخطاب الأكاديمي[1].

إن «**الخطاب**» بهذا المعنى الاصطلاحي، لا يقصد به المعنى اللغوي المجرَّد، وهو «الكلام بين متكلم وسامع، ومنه اشتقاق: الخطبة»[2]، فهو: «الكلام الذي يقصد به الإفهام»[3]، ومنه قول الأُصوليين: «خطاب الله تعالى»، أو «خطاب الشارع الحكيم»[4]، فالاصطلاح الحديث يقصد به ما هو أوسع من ذلك، سواء في موضوعاته، أو في وسائله، أو في آثاره ونتائجه. إنه يعبِّر عن الاتجاه الموحَّد من حيث الموضوع أو الموقف يؤدي إلى تكوين شبكة متماسكة ومتناسقة من المعرفة التي تبنى عليها التصورات والتصرفات[5].

مفهوم تفسير الإسلام:

من المعلوم أن دين الإسلام مشتمل على مسائل الاعتقاد في الله وأسمائه وصفاته وقضائه وقدره وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعلى عبادات كثيرة قلبية وقولية وبدنية، رأسها ـ بعد الشهادتين ـ: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وعلى الأمر بمحاسن الأخلاق والآداب وفضائلها، والنهي عن مساوئها ورذائلها، وأعلى ذلك:

.....

(١) راجع مادة (Discourse) في «**ويكيبيديا**» الإنكليزية.

(٢) «**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**» للفيُّومي (ت: ٧٧٠)، دار المعارف، القاهرة، د. ت.، ١٧٣، مادة: (خطب).

(٣) «**الكليات**» لأبي البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤)، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٩، ٤١٩.

(٤) راجع تعريفات العلماء في مادة (خطاب) في «**موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين**»، للدكتور رفيق العجم، مكتبة لبنان، بيروت: ١٩٩٨، ٦٧٣، ٦٧٨.

(٥) راجع مادة (الخطاب) في «**معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع**»، لطوني بينيت وزميلاه، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت: ٢٠٠٥، ٣٢٢-٣٢٥.

النهي عن كبائر الذنوب وموبقاتها، وعلى أحكام كثيرة في تنظيم شؤون الناس في التصرفات والمعاملات وحفظ الضروريات وصيانة الحقوق، وبيان الحلال والحرام في الأنكحة والأطعمة والأشربة، وسائر ميادين الحياة للفرد والمجتمع والدولة، وغير ذلك مما هو مبثوث بأدلته التفصيلية في ثنايا الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة، ومشروحٌ على وجه البسط والاستيعاب في مصنفات علماء المسلمين الكثيرة جدًّا منذ العصور الإسلامية الأولى وحتى يوم الناس هذا.

هذه الاعتقادات والعبادات والأخلاق والآداب وأحكام المعاملات؛ مهما كثرت تفاصيلها، وتنوعت أشكالها، وتعددت ميادينها؛ فلا بدَّ أن تكون متضمنة لمعنًى كليٍّ، ومقصدٍ جامعٍ، وذلك المعنى والمقصد هو المطلوب الحقيقي من الدين كلِّه، وهو المراد من المخاطبين أن يقوموا به ابتداءً وأصالةً، وما عداه فمن أحكام الدين التفصيلية، وهي مقصودة بالتبعية، ولها أهميتها بقدر منزلتها بين مراتب أحكام الديانة.

ومن هنا: فإننا نقصد بمصطلح «**تفسير الإسلام**»، أو «**تفسير الدين**»، أو «**تفسير العبادة**»؛ المفهوم الكليَّ لجملة الوحي والرسالة والنبوة والدين والشريعة والعبادة والآخرة، فليس المقصود به تفسير آية، أو شرح حديث، أو بيان حكم معيَّن، وإنما المقصود معرفة العِلَلِ والحِكَم والمقاصد والغايات للديانة الإلهية، والرسالة المحمدية.

لعلنا نستطيع القول في تعريف مصطلح «**تفسير الإسلام**» بأنه: الشَّرح والتوضيح والتَّجلية والبيان لحقيقة دين الإسلام من حيثُ: غاياته، ومقاصده، ومعانيه الكليَّة الجامعة، التي تكوِّن نظريَّةً عقيديَّةً متكاملةً، ورؤيةً فكريةً مُتَّسقةً حول مفاهيم: الدِّين، والعبادة، والشَّريعة، والأخلاق، والسُّلوك، والغاية من الخلق، وعلاقة الدِّين بالسِّياسة والاجتماع وحركة التَّاريخ والنَّاس، ومرتبة إقامة الدَّولة وإصلاح المجتمع بين أحكام الدِّيانة.

جلاء تفسير الإسلام في الخطاب القرآني والدعوة المحمدية:

لقد كانت البشرية في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فامتنَّ الله تعالى عليها ببعثة

محمد ﷺ ليدلهم على الحق والهدى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾ [الجمعة]، وجعل دينه ظاهرًا بيِّنًا، ورسالته واضحة مفهومة؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب]، فلم تكن دعوته فلسفة غامضة، ولا تضمن دينه أسرارًا وألغازًا، بل هو جليٌّ واضح، يفهمه كلُّ من توفرت له وسائل الإدراك والفهم من العقل ومعرفة لغة الخطاب، وبذلك قامت حجَّة الله تعالى على كل من بلغته الرسالة، وقد عبَّر عن هذا الجلاء والوضوح والفطرية الصحابي الجليل جعفرُ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، في قوله للنجاشي ـ ملك الحبشة ـ: أيُّها الملكُ! كنَّا قومًا أهلَ جاهليَّةٍ: نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونأْتِي الفواحشَ، ونقطَعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجوارَ، يأكُلُ القويُّ منَّا الضَّعيفَ، فكُنَّا على ذلك حتَّى بعث الله إلينا رسولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نسَبَه، وصِدْقَه، وأَمانَتَه، وعَفَافَه، فدَعَانا إلى الله لنوحِّدَه ونَعْبُدَه، ونَخْلَع ما كُنَّا نَعْبُدُ نحنُ وآباؤُنا مِن دونِه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنَا بصدق الحديث، وأداءِ الأمانة، وصلة الرَّحِمِ، وحُسْن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وأمرنا أَنْ نعبُدَ الله وحْدَه، ولا نشركَ به شيئًا، وأمرَنا بالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام... فعَدَّد عليه أُمورَ الإسلامِ(٦).

لقد نظر العقلاء في هذه الرسالة فوجدوا أنَّ الله تعالى نزَّه نفسه المقدَّسة أن يكون إيجاده لهذا العالم من غير معنًى شريف، وغايةٍ مقصودةٍ؛ فقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان]، ووجدوا أنه لبيان تلك

(٦) أخرجه أحمد في «المسند» ١/٢٠١ (١٧٤٠) من حديث أم سلمة بنت أبي أُميَّة بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ، في قصة الهجرة إلى الحبشة. وهو حديث صحيح، سقته بتمامه وخرَّجته في كتابي: «**الدخول في أمان غير المسلمين وآثاره في الفقه الإسلامي**».

الحقيقة قد أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ووضع الأحكام والشرائع، لهذا لمَّا نفى سبحانه أن يكون خَلْقُهُ لغير غايةٍ، أعقب ذلك بالامتنان بإنزال الكتاب؛ فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، فلا جَرَمَ أن يتضمَّن القرآنُ الكريم تفسيرًا صريحًا واضحًا لدين الإسلام؛ إما بالبيان المباشر كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة]، وإما ببيان مراتب أحكامه وما يترتب عليها من الثواب والعقاب، وما يتعلق بها من أعمال ونتائج وآثار، فلم يجعل الله تعالى الحكمةَ المقصودةَ من الخَلْق والدين والعبادة والشريعة قضية مجهولة، ولا موضع غموضٍ وإشكالٍ يزيدُ الإنسان حيرةً وجهالةً واضطرابًا في هذه الحياة الدُّنيا، بل بيَّن أنَّ الغايةَ الكلية، والمقصد الجامع هو: عبادةُ الله وحده لا شريك له، وطاعتُه بصدق التوجُّه وإخلاص النية، واتباعِ شريعته، وابتغاءِ مرضاته، والعملُ للآخرة؛ طمعًا في ثوابه، وخوفًا من عقابه. فهذا هو المقصد الكلي من الوحي والقرآن والنبوة والرسالة والشريعة والديانة والعبادة، كما توصل إليه وأيقن به أهل العلم بعد المعرفة الدقيقة، والاستقراء التامِّ لنصوص القرآن والسنة(٧).

ومن هنا فإن الواجب هو العناية البالغة بما هو أصل الدين الأكبر، وحقيقته الكبرى، ومقصده الأعلى، وعدم الانشغال عنه بالمقاصد التبعية، والأحكام الجزئية، وإن كان لا يجوز إهمالها، أو التقصير فيها، فلا بدَّ من إعطائها حقَّها من غير إفراط ولا تفريط. وقد أبان النبيُّ عن هذه الحقيقة الكبرى أحسن إبانة، فقال ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى**

(٧) راجع الأدلة التفصيلية على ما ذكر من القرآن والسنة وكلام العلماء عن نتيجة استقرائهم التام في كتابي: «**مقدمة في تفسير الإسلام**»، مركز دراسات تفسير الإسلام، بريطانيا: ١٤٣٨، ٨٥ – ١٠٦.

عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[٨].

دخول النقص والخلل على المسلمين:

لم يمت رسول الله ﷺ حتى بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وأظهر الله به الدين، وأقام الحجة، فانطلق أصحابه الكرام ـ الذين هم ثمرة دعوته وبرهان نجاحها ـ ينشرون الدين الحق في مشارق الأرض ومغاربها وهم على بصيرةٍ تامة بغاية الدين، ومقصد الرسالة، يصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]، فدعوا الناس إلى العبودية الخالصة لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله، لا يريدون في ذلك علوًّا في الأرض ولا فسادًا، كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرُستم ـ قائد جيش الفرس، وقد سأله: ما جاء بكم؟ ـ: **الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله.** قالوا: وما موعود الله؟ قال: **الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى، والظفر لمن بقي**[٩].

لقد كان من ثمار ظهور الإسلام، وبصيرة الصحابة في دعوة الأمم؛ أن صارت حقائق الدين الكبرى راسخة في أذهان المسلمين، حيَّة في وعيهم واهتمامهم، لهذا لم يظهر بينهم في القرون الأولى الإخلال بالتوحيد، والوقوع في ذرائع الشرك ـ بله الشرك الصريح ـ، رغم أن البدع والأهواء ظهرت في أواخر أيام الصحابة، فظهرت بدعة الخوارج والقدرية، ثم ظهرت بدع المرجئة والمعتزلة والجهمية، لكن لا نعلم في أخبار التاريخ وشواهده ما يدل على ظهور الممارسات الشركية عند المنتسبين إلى الإسلام إلا بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى التي شهد لها النبيُّ ﷺ بالخيرية، فدخل حواضر المسلمين داء الأمم من قبلهم في التعلق بالأموات والقبور وتعظيمها، والاعتقاد فيها،

.....

(٨) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) «**البداية والنهاية**» لابن كثير، دار هجر، القاهرة: ١٤٢٤، ٦٢٢/٩.

وطلب العون والمدد منها، فكان ذلك من أكبر أسباب إضعاف وتشويه حقائق الإسلام الكبرى في نفوس أتباعه، وقوي ذلك واتَّسع لأسباب كثيرة لا يمكن التطرق إلى شرحها في هذه العجالة، لكن نشير إلى أهمها بإيجاز:

١- نشاط غلاة الشيعة الرافضة، الذين أظهروا الغلو في الأئمة، وتعظيم القبور، والبناء عليها، وابتدعوا الحجَّ إلى المزارات والمشاهد مضاهاةً بالحج إلى بيت الله الحرام(١٠).

٢- دخول أمم كثيرة في الإسلام في بلاد واسعة، ومددٍ قريبةٍ، وهم لا يعرفون اللغة العربية، ولا يجدون من يعلمهم الدين على وجه البيان والتفصيل، فاعتقدوا بالإسلام اعتقادًا مجملًا، وأخذوا بما تيسر لهم معرفته من شرائعه وأحكامه، وبقيت فيهم كثير من عقائد الجاهلية وعوائدها وأخلاقها.

٣- اختلاط المسلمين بالأمم الأخرى؛ فدخل عليهم بسبب الألفة، وتعاقب السنين، شرٌّ عظيم من اعتقادات وعوائد تلك الأمم.

٤- ظهور غلاة الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام كالفارابي (ت: ٣٣٩/٩٥٠)، وابن سينا (ت: ٤٢٨/١٠٣٧) ـ فتكلموا في تفسير الإسلام بما يخالف اعتقاد جميع المسلمين، حيث زعموا أن الدين والعبادة مجرَّد وسيلةٍ لإصلاح النفس وإقامة عدل الدنيا، وبلوغ السعادة فيها، وجاهروا بالقدح في حقائق النبوة والشريعة والحياة الآخرة، فانتصب لهم علماء الإسلام، وبيَّنوا زيغهم وكفرهم؛ بمخالفتهم لمقاصد الدين الكلية، ونقضهم لأصوله القطعية.

٥- انتشار التصوف والطرق الصوفية التي صارت قنطرة لدخول كثير من بدع

.....

(١٠) راجع مقدمتي الدراسية لبحث: «**دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية في الدولة العثمانية قبل ظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وقيام الدولة السعودية**»، إعداد: محمد داود كوري، دار اللؤلؤة، بيروت: ١٤٣٨، ٥٥-٥٩.

النصرانية والرافضة وأديان وفلسفات الهند، حتى صار تقديس المشايخ وتعظيم القبور والبناء عليها، والذبح والنذر لها؛ من أبرز ممارسات أتباعهم(١١).

٦- دراسة العقيدة الإسلامية من خلال علم الكلام والمنطق والفلسفة، مما أدى إلى الابتعاد عن المنهج القرآني الأصيل في توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعمارة القلوب بتعظيمه وإجلاله والتسليم لأخباره، والانقياد لأحكامه، فكان انتشار المدرسِيَّة الكلاميَّة في العالم الإسلامي من أعظم أسباب ضعف الصلة بالله تعالى والإخلال بتعظيم أخباره وأحكامه(١٢).

٧- انحسار دور العرب في قيادة الأمة المسلمة، فتغلب الأعاجم على كثير من دول الإسلام، وهم ما بين باطنية كائدين، أو جهلة غافلين، فانتشرت بسببهم الانحرافات الاعتقادية، والبدع الدينية، وكثرت المظالم والمفاسد في المجتمعات المسلمة.

٨- الحملات الصليبية على بلاد المسلمين، والتي نتج عنها احتلال بيت المقدس وبعض سواحل بلاد الشام عقودًا طويلة، ثم اجتياح المغول للمشرق الإسلامي، واستباحتهم لكثير من دوله، حتى اجتاحوا بغداد سنة (٦٥٦)، فقتلوا أكثر أهلها، وحرقوا مكتباتها، ودمروا عمرانها، ونشروا الفوضى، فكان ذلك من أعظم المصائب التي نزلت على المسلمين، وكانت آثارها على مجتمعاتهم وأخلاقهم وحضارتهم في غاية السوء.

إلى غير ذلك من الأسباب والعوامل التي أدت إلى ظهور البدع والانحرافات الاعتقادية والعملية والسلوكية في المجتمعات المسلمة، وانتشرت فيها انتشارًا كبيرًا،

.....

(١١) راجع ـ على سبيل المثال ـ: «**هذه هي الصوفية**» للشيخ عبد الرحمن الوكيل رحمه الله، و«**الصلة بين التصوف والتشيع**» للدكتور كامل مصطفى الشبيبي، و«**تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي**» للأستاذ الدكتور محمد أحمد لوح، وغيرها كثير.

(١٢) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبحث عظيم في هذه الظاهرة ونتائجها السيئة على الأمة حيث سلَّط الله تعالى الأعداء عليها، ودخلت مرحلة الانحطاط والتشرذم، ساقه في «**الفرقان بين الحقِّ والباطل**» (المجموع: ١٣/١٧٧-١٨٢).

وعمَّت الغفلة عن جوهر الرسالة الإلهية، وأصلها الأعظم، ولم يسلم من ذلك كثير من العلماء والفقهاء والقضاة، حتى إننا لنجد فيهم كبيرًا في العلم، واسع الرواية، بالغ الدراية، كثيرَ التصانيف، لم ينفعه ذلك كله في تحقيق العبودية لله تعالى والسلامة مما يضادها كالقول بوحدة الوجود، والاستغاثة بغير الله تعالى، والاعتقاد في قبور الصالحين. وكلما تأخر الزمان، وابتعدنا عن الصدر الأول، ومنبعه الصافي النقي؛ اشتدَّ الفساد، وعظم الوباء، وانشغل عامَّة العلماء بعلوم الآلة ومسائل الفروع، وتقعير العلم بالمختصرات والمتون المغلقة، ثم الانهماك في وضع الشروح والحواشي والتعليقات عليها، فليس عجبًا أن تقرأ لأحد العلماء المفتين المبرَّزين في القرون المتأخرة فتوًى بكفر منكر الاستغاثة بالنبي ﷺ![13]

لقد قيَّض الله تعالى لهذا الدين في كلِّ عصرٍ بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، وينفون عن كتاب الله وسنة رسوله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فكانت لهم آثار مشهودة، وجهود مشكورة، في حراسة العقيدة، وصيانة الشريعة، وإصلاح عقائد المسلمين وعباداتهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، كل بحسب علمه وقدرته واستطاعته، وبذله وشجاعته وتضحيته، وكان أبرزهم في ذلك شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية (ت: ٧٢٨) رحمه الله، فقد بذل جهودًا عظيمة في بيان الفهم الصحيح للدين الحقِّ، والرد على انحرافات الفلاسفة والباطنية، وعلى أهل الكلام والبدع والأهواء، وكان أعظم إنجازاته أنه لم يشغل نفسه بالفروع الفقهية، ولا أفنى عمره في الحواشي والتعليقات والشروح المكررة، بل جمع تفكيره وهمَّته على المسائل الكبرى التي هي معالم الإسلام، وبها قيامه.

لقد أبان ابن تيمية عن وعيه العميق بأهمية هذا المنهج في حراسة العقيدة وإصلاح المسلمين، فقال لأحد تلامذته ـ وقد التمس منه تأليف نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته

.....

(١٣) من ذلك فتوى الشيخ عبد الغني النابلسي (ت: ١١٤٣هـ/١٧٣١م) في مراسلاته: «**وسائل التحقيق ورسائل التوفيق**»، تحقيق وتقديم: د. بكري علاء الدين، دار نينوى، دمشق: ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م، ص: ٢٤٦-٢٤٧.

وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء ـ: «الفروع أَمرُها قريب، فإذا قلَّد المسلم فيها أحد العلماء المقلَّدين جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقن خطأه، وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء ـ كالمتفلسفة، والباطنية، والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية، والقدرية، والنصيرية، والجهمية، والحلولية، والمعطلة، والمجسمة، والمشبهة، والراوندية، والكُلَّابية، والسلميَّة، وغيرهم من أهل البدع ـ قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أن كثيرًا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة على كل دينٍ، العليَّة. وأن جمهورهم أوقع الناسَ في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أن سمعتُ أو رأيتُ معرضًا عن الكتاب والسنة مقبلًا على مقالاتهم إلا وقد تزندق، أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده، فلمَّا رأيت الأمرَ على ذلك بانَ لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم؛ أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، وزَيْف دلائلهم، ذبًّا عن الملَّة الحنيفية، والسنة الصحيحة الجلية. ولا ـ والله! ـ ما رأيت فيهم أحدًا ممن صنف في هذا الشأن، وادَّعى علوَّ المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام، وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعمَّا جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة،... فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جُلَّ هَمِّي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية»[١٤].

إن تميز ابن تيمية العلمي، وأجوبته التفصيلية للمسائل الكبرى في أصول التوحيد وقواعد الاعتقاد، ومنازلته للفرق الخارجة عن السنة والجماعة، ورؤيته الإصلاحية التجديدية، وتنوع موضوعاتها وميادينها؛ هي التي جعلته قدوةً للمصلحين، وإمامًا للدعاة المجددين، منذ زمانه وحتى عصرنا الحاضر[١٥].

.....

(١٤) نقله أبو حفص عمر بن علي البزاز (ت: ٧٤٩) في: «**الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**»، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٣٩٦/١٩٧٦، ٣٣-٣٥.

(١٥) راجع: «**دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة وموقف الخصوم منها**»، للشيخ صلاح مقبول أحمد، دار الأثير، الكويت: ١٤١٦.

محمد بن عبد الوهاب وتفسير التوحيد والإسلام:

لم تنقطع جهود العلماء العاملين، والدعاة المصلحين، في إصلاح عقائد المسلمين وعباداتهم، ومكافحة البدع والخرافات والجهالات، لكنها كانت جهودًا محدودة في تأثيرها زمانًا ومكانًا، ولم تحدث تغييرًا كبيرًا في واقع المسلمين على مستوى الأمة، حتى الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في عاصمة الدولة العثمانية (١٠٢٩/١٦٢٠)، وعُرفت بجماعة قاضي زاده، لم يكتب لها النجاح والتمكين والانتشار، رغم أن نشاطها امتدَّ نحو مئة سنة، وبقي لها أتباع وأنصار قلائل في بلاد الشام إلى نحو سنة (١١٦٣/١٧٥٠)[١٦].

كانت الأمة المسلمة على موعد مع إمام مصلح، وعالم مجدد، هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميميُّ (١١١٥ - ١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م)، الذي ظهر في قلب الجزيرة العربية ليُعبِّر عن الفهم الصحيح للإسلام، بصفائه ونقائه، وفطرته البعيدة عن المؤثرات الخارجية من الفلسفات والموروثات الفكرية والحضارية، فقد ظهر الشيخ في بيئة عربية خالصة، قبل أن تطأ المنطقة قدم محتل أجنبي، وقبل أن تزحف الفكرة الغربية عليها، فكانت دعوته دعوة إسلامية خالصة، بفطرة عربية نقية[١٧].

.....

(١٦) راجع: «**دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية في الدولة العثمانية قبل ظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وقيام الدولة السعودية**»، إعداد: محمد داود كوري، تحرير وتقديم: عبد الحق التركماني، دار اللؤلؤة، بيروت: ١٤٣٨.

(١٧) وما أصدق وصف المستشرق الأمريكي لوثروب ستودارد (ت: ١٩٥٠م) لحال المسلمين عند ظهور الشيخ، وأثر دعوته، إذ قال في كتابه: «**حاضر العالم الإسلامي**»، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق: أمير البيان شكيب أرسلان، الطبعة الرابعة: ١٣٩٤/١٩٧٣، ٢٥٩: «في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركة، فأربدَّ جوُّه، وطبقت الظلمة على كل صقع من أصقاعه، ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشَى ما كان باقيًا من آثار التهذيب العربي، واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع هؤلاء الأهواء والشهوات، وماتت الفضيلة في الناس، وساد الجهل، وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، فليس يرى في العالم الإسلامي في ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين..»، إلى أن قال: «وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء، وألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة سجفًا من الخرافات

كان محمد بن عبد الوهاب يعي بأن مشكلة المسلمين ليست في تضييع أركان الإسلام وطمس معالمه، ولا في قلة العلم والكتب والمدارس والمكتبات، بل في الفهم الصحيح لهذا الدين ومقاصده وحقائقه الكبرى، فجميع المسلمين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن دخل عليهم خلل عظيم في تحقيق معنى هاتين الكلمتين العظيمتين فهمًا وعلمًا وعملًا وممارسة وسلوكًا. وبكلمة موجزة يمكن القول أن المشكلة تتمثل في الانحراف في «**تفسير التوحيد والإسلام**»، وهذا ما سيقوم الشيخ بمعالجته وتقويمه وتصحيحه.

أهمُّ كتب الشيخ وأشهرها على الإطلاق هو: «**كتاب التوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد**»، وقد أسسه الشيخ على هذه الرؤية المركزية لدعوته الإصلاحية، فقال في أول

.....

وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء، وطوائف الفقراء والمساكين، يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالأباطيل والشبهات، ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن، فصار يُشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرت الرذائل، وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، فصار الحج المقدس الذي فرضه الإسلام على من استطاع ضربًا من المستهزآت. وعلى الجملة: فقد بدل المسلمون غير المسلمين، وهبطوا مهبطًا بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر، ورأى ما كان يَدْهَى الإسلامَ؛ لغضب، وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين، كما يُلعَن المرتدون وعبدة الأوثان. وفيما العالم الإسلامي مستغرق في هجعته، ومدلج في ظلمته، إذا بصوت يدوِّي من قلب صحراء شبه الجزيرة العربية، مهد الإسلام، يوقظ المؤمنين ويدعوهم إلى الإصلاح والرجوع إلى سواء السبيل، والصراط المستقيم، فكان الصارخ هذا الصوت إنما هو المصلح المشهور: محمد بن عبد الوهاب، الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت، واندلعت ألسنتها إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي، ثم أخذ الداعي العظيم يحض المسلمين على إصلاح النفوس، واستعادة المجد الإسلامي القديم التليد، فتبدت تباشير صبح الإصلاح، ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام». وعلَّق شكيب أرسلان بقوله: «لو أنَّ فيلسوفًا نِقْريسًا [أي: حاذقًا ماهرًا فطِنًا] من فلاسفة الإسلام، أو مؤرخًا عبقريًّا بصيرًا بجميع أمراضه الاجتماعية، أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة؛ ما أمكنه أن يصيب المحزَّ، وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكي استودارد».

كتابه: «باب **تفسير التوحيد** وشهادة أن لا إله إلا الله»[١٨]. وهذا الباب هو الخامس، وقد ذكر قبله أربعة أبواب هي بمثابة مقدمة عامة في فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، وأن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، والخوف من الشرك، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وهذه المسائل يقرُّ بها جميع المسلمين، لكن الخلل عندهم في حقيقة التوحيد ومدلوله، لهذا كان لا بدَّ للشيخ أن يتكلم في «**تفسير التوحيد**» على وجه البسط والتفصيل، فجرَّد كتابه لهذا الهدف، وقال في آخر هذا الباب: «**وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب**».

يعني: أن ما يأتي بعد هذه الترجمة شرحٌ للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن لا نعبد إلا الله، ولا يعتقد النفع والضر إلا في الله، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات والاعتقادات التي يجب إخلاصها لله تعالى[١٩].

وأبرز الشيخ محمد بن عبد الوهاب عنايته بهذا الأمر في كتاب آخر من كتبه، فذكر في كتابه: «**فضل الإسلام**»[٢٠] بابًا سمَّاه: «**باب: تفسير الإسلام**»، وساق نصوص القرآن والسنة الدالة على «تفسير الإسلام» بأصوله وأركانه وأحكامه.

إذن؛ لم تكن دعوة الشيخ إلا بيانًا للتفسير الصحيح للتوحيد والإسلام، الذي انحرف فيه، أو أخل به أكثر المسلمين، وقعد عن بيانه وقصَّر أكثر العلماء، فلا جديد عند الشيخ سوى إحياء ما اندرس من معالم الدين، وإعادة المسلمين إلى منابعه الصافية، ومفاهيمه الصحيحة، لهذا نجده يقول: «إني ـ ولله الحمد ـ متبع ولست

.....

(١٨) «**كتاب التوحيد**»، تحقيق: د. دغش بن شبيب العجمي، مكتبة أهل الأثر، الكويت: ١٤٣٥، ١٣٧.

(١٩) «**تيسير العزيز الحميد**» للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، دار الصميعي، الرياض: ١٤٢٨، ٢٩٧/١.

(٢٠) مطبوع ضمن «**مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب**»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، وطبع مفردًا مرارًا.

بمبتدع؛ عقيدتي وديني الذي أدين الله به: مذهب أهل السنة والجماعة، الذي عليه أئمة المسلمين، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة، لكني بيَّنت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به من الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله، الذي لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة»[٢١].

وبيَّن أن سبب الخلاف بينه وبين المعادين لدعوته ليس في شرائع الإسلام بل في «**تفسير التوحيد**»، فقال: «إن سألتَ عن سبب الاختلاف الذي هو بيننا وبين الناس؛ فما اختلفنا في شيء من شرائع الإسلام، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك، ولا في شيء من المحرمات. الشيء الذي عندنا زين هو عند الناس زين، والذي عندهم شين، هو عندنا شين، إلا أنا نعمل بالزين ونغصب الذي يدنا عليه، وننهى عن الشين ونؤدب الناس عليه. والذي قلب الناس علينا: الذي قلبهم على سيد ولد آدم ﷺ، وقلبهم على الرسل من قبله: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ومثل ما قال ورقة للنبي ﷺ: «**والله ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي**»[٢٢]. فرأسُ الأمر عندنا وأساسه: إخلاص الدين لله. نقول: ما يُدعى إلا الله، ولا يُنذر إلا لله، ولا يُذبح القربان إلا لله، ولا يُخاف خوف الله إلا من الله. فمن جعل من هذا شيئًا لغير الله فنقول: هذا الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء]»[٢٣].

الملك عبد العزيز وتجديد الدعوة والدولة:

.....

(٢١) «**مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب**»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٣٦/٥.

(٢٢) أخرجه البخاري (٣) و(٦٩٨٢).

(٢٣) «**مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب**»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٣٦/٥.

كتب الله تعالى النجاح والظهور لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية بما هيأ لها من مناصرة آل سعود الأمجاد، فكان الاتفاق بين الإمام المصلح المجدِّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود بن مقرن ـ وهو الاتفاق الذي عُرف باتفاق أو بيعة الدرعية، سنة (١١٥٧/١٧٤٤) ـ؛ على الدعوة إلى كلمة التوحيد، والقيام في نصرتها، ومحاربة مظاهر الشرك والجهل والفُرقة وعوائد الجاهلية، حتى يجتمع المسلمون على التوحيد وتحكيم الشرع، وتجتمع كلمتهم في ولاية شرعية تقضي على الشرك والبدع، والتفرق والتشرذم، وذهاب الأمن وسفك الدماء، فيعمُّ الأمن والأمان والطمأنينة والخير[٢٤].

هكذا تأسست الدولة السعودية الأولى (١١٥٧ – ١٢٣٣ / ١٧٤٤ – ١٨١٨) منذ أول يوم على التقوى، وقد كان الإمام محمد بن سعود وفيًّا لذلك الاتفاق، فبذل جهوده في نصرة الدعوة السلفية الإصلاحية، وكتب الله له العزَّ والنصر والتمكين[٢٥]، فرغم أن تلك الدولة أسقطت بحملة عسكرية ظالمة، سفكت فيها الدماء، واستبيحت الأعراض والأموال، ودمرت الدرعية، وقُتل كبار رجالات الدولة والدعوة، إلا إنها عادت إلى النهوض في أقل من عقد من الزمان، فقامت الدولة السعودية الثانية (١٢٤٠ – ١٣٠٩ / ١٨٢٤ – ١٨٩١)، وهذا يدلُّ على رسوخ جذور الدعوة في نجد، وقبول الناس لها، لأنها وافقت فطرهم، ووجدوا خيرها وبركاتها في واقعهم.

ثم كان التجديد الثالث للدعوة والدولة على يد الملك الصالح الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود باسترداد الرياض سنة (١٣١٩/١٩٠٢)، وبدأ جهاده في توحيد جزيرة العرب والحرمين الشريفين، حتى تأسست «المملكة العربية السعودية» في سنة (١٣٥١/١٩٣٢)، تحت راية التوحيد: «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

.....

(٢٤) راجع خبر البيعة في «**عنوان المجد في تاريخ نجد**» لابن بشر النجدي، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤٠٢، ١/٣٩-٤٣.

(٢٥) راجع: «**الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى**» للدكتور عبد الرحمن بن علي العريني، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩.

نسأل الله تعالى أن يديم أمنها واستقرارها، ويردَّ عنها كيد الكائدين، ومكر الماكرين، ويحفظها عزًّا وحصنًا للإسلام والمسلمين.

رسالة واضحة في زمن الاضطراب والحيرة:

قبل أن نتكلَّم عن الملك عبد العزيز لا بدَّ أن نذكر وصفًا موجزًا لحال العالم الإسلامي في عصره؛ فقد كانت أوصال الأمة تتمزق على أيدي الاستعمار؛ بينما كان عبد العزيز يوحد جزيرة العرب، وكانت الأمة تتلاحق عليها الهزائم؛ بينما كان عبد العزيز يحقق الانتصارات تلو الانتصارات، وكانت الأمة بدأت تتقبل تدريجيًّا النظريات والأفكار والقوانين الوضعية التي جاء بها الاستعمار؛ بينما كان عبد العزيز يأخذ بيدها للاعتزاز بالعقيدة الإسلامية، وإقامة الدين، وبناء الدولة على أساس تحكيم شرع الله تعالى في مختلف ميادين الحياة.

ليس بإمكاننا أن نفصل القول فيما كان عليه حال المسلمين في بداية القرن الرابع عشر الهجري، والتاسع عشر الميلادي، فالكلام في ذلك يطول، وقد كتب فيه كثيرًا، وخلاصته: أن المسلمين كانوا في صدمة كبيرة، وحيرة بالغة، واضطراب شديد، نتيجة الفتن والنوازل العظيمة التي أحاطت بهم؛ من تغلب الاستعمار الغربي على كثير من بلدانهم، والانقضاض على الدولة العثمانية حتى تم لهم القضاء عليها في سنة (١٩٢٣)، وغلبة الجهل والتخلف والضعف عليهم[٢٦]، أمام علوم الغرب المادية ونهضته وقوته، وظهور الدعوات والاتجاهات السياسية والفكرية المتناقضة المتنافرة؛ كالقومية

.....

(٢٦) قال أمير البيان شكيب أرسلان في «**لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟**»، دار مكتبة الحياة، بيروت، ٣٩: «إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام لهم في المشارق والمغارب، لم ينحصر في جاوة وملايو، ولا في مكان آخر، وإنما هو متفاوت في دركاته، فمنه شديد العمق، ومنه ما هو قريب الغور، ومنه ما هو عظيم الخطر، ومنه ما هو أقل خطرًا. وبالإجمال: حالة المسلمين الحاضرة ـ ولا سيما مسلمي القرن الرابع عشر الهجري، أو العشرين للمسيح ـ لا ترضي أشد الناس تحمسًا بالإسلام وفرحًا بحزبه، فضلًا عن غير الأحمسي من أهله. إن حالتهم الحاضرة لا ترضي من جهة الدين ولا من جهة الدنيا، ولا من جهة المادة،...».

والشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية والليبرالية والعلمانية، وغير ذلك.

نعم؛ نحن لا نتكلم هنا عن عوام المسلمين، ولا عن فئة السياسيين والمثقفين والمفكرين فحسب، بل عن علماء الإسلام ودعاته، وعن العاملين لخدمته ونصرته، الداعين إلى مقاومة الاستعمار وإصلاح واقع الأمة بالعلم والتجديد والنهضة، منهم[٢٧]: رفاعة بن رافع الطهطاوي (١٢٩٠/١٨٧٣)، وعبد القادر الجزائري (١٣٠٠/١٨٨٣)، وخير الدين باشا التونسي (١٣٠٧/١٨٩٠)، وعلي باشا مبارك (١٣١١/١٨٩٣)، وسيد أحمد خان (١٣١٥/١٨٩٨)، وجمال الدين الأفغاني (١٣١٤/١٨٩٧)، وعبد الرحمن الكواكبي (١٣٢٠/١٩٠٢)، ومحمد عبده (١٣٢٣/١٩٠٥)، وجمال الدين القاسمي (١٣٣٢/١٩١٤)، وسيد أمير علي (١٣٤٧/١٩٢٨)، ومحمد رشيد رضا (١٣٥٤/١٩٣٥)، ومحمد إقبال (١٣٥٧/١٩٣٨)، وعبد الحميد بن باديس (١٣٥٩/١٩٤٠)، وعبد العزيز الثعالبي (١٣٦٣/١٩٤٤)، وشكيب أرسلان (١٣٦٦/١٩٤٦)، وسعيد النورسي (١٣٧٩/١٩٦٠)، وعبد الكريم الخطابي (١٣٨٢/١٩٦٣)، ومحب الدين الخطيب (١٣٨٩/١٩٦٩)، ومالك بن نبي (١٣٩٣/١٩٧٣)، وغيرهم كثير، كان لهم أكبر الأثر على أهل العلم والفكر والدعوة في العصر الحديث، ولم ينقطع أثرهم حتى يوم الناس هذا.

لقد كان هؤلاء الأعلام ـ أنفسهم ـ في حيرة واضطراب وارتباك كبير، ومن أراد أن يعرف مصداق قولنا هذا؛ فلينظر إلى سيرهم، وليتأمل آراءهم ومواقفهم، وليدقق في إنجازاتهم وأعمالهم؛ ليكتشف مظاهر تلك الحيرة والاضطراب والارتباك في تحولاتهم الاعتقادية، وتناقضاتهم الفكرية، ومواقفهم المتنافرة المتغيرة:

سيجد بين هؤلاء الأعلام من ناصر التيارات القومية، ومن فُتن بالاشتراكية، ومن دعا إلى الأخذ بثقافة الغرب ومنهاجه الحديث في السياسة والاجتماع، ومن دخل في الجمعيات الماسونية، أو شارك في تأسيس الأحزاب القومية والعلمانية، ومن جمع بين

.....

(٢٧) هؤلاء أشهر (**دعاة الإصلاح والتجديد والنهضة**) من أصحاب التوجهات الإسلامية، ولا يعني هذا أنهم جميعًا من الصالحين المصلحين، بل فيهم من هو من رؤوس الفساد والشر والانحراف؛ كمحمد بن صفدر الأسد آبادي الإيراني، المتلقِّب بجمال الدين الأفغاني.

نصرة منهج السلف الصالح وتعظيم المعتزلة والجهمية، أو بين العقلانية والخرافة، أو بين السنة والبدعة، أو بين مقاومة الاستعمار والدعوة إلى التغريب، ولن يشتدَّ عجبه ـ بعد ذلك ـ أن يجد بينهم من أسس «**المطبعة السلفية**» ونشر فيها بعض كتب الفيلسوف الباطني ابن سينا!

وبالجملة: إنك لتقرأ لأكثر هؤلاء نصوصًا عظيمة في نصرة الإسلام والسنة، وبيان التوحيد الخالص، ومحاربة الشرك والبدعة؛ لكنك لا تنتهي منها حتى تصاب بالصدمة والإحباط عندما تجد نصوصًا أخرى لهم تخالف جميع ذلك أو أكثره أو بعض مهماته، فإذا نظرت إلى أعمالهم المشهودة، ومواقفهم المشهورة؛ وجدت هذا التناقض أيضًا! والمعصوم من عصمه الله تعالى.

الملك عبد العزيز بصيرة في الدعوة ومعرفة بالمهمة:

إن جهاد ابن سعود وأعماله وإنجازاته امتدَّت نصف قرن من الزمان، ابتداء من تغلبه على الرياض سنة: (١٣١٩/١٩٠٢)، إلى وفاته سنة: (١٣٧٣/١٩٥٣) رحمه الله تعالى. لقد سار خلال تلك المدة الطويلة على نهج واحد، وخطوات متناسقة متآلفة لتجديد الدعوة والدولة برؤية واضحة، وسياسة شرعية حكيمة، غايتها التمكين لهذه الدعوة، بعدما رأى من تكالب الأعداء عليها، وغفلة أكثر المسلمين عنها. إن هذا لأكبر برهان، وأعظم شاهد على أنه رحمه الله كان على بصيرة في دينه، وبيِّنة من أمره، كان يدري، ويدري أنه يدري.

لقد تكوَّنت عقيدة ابن سعود، ومنهاجه في إقامة الدولة، ورؤيته في الإصلاح؛ من خلال جملة من الأسباب والعوامل، وظهر أثر ذلك جليًّا في خطاباته وأحاديثه التي حفظ ودوِّن منها قدر صالح نافعٌ، وبالاطلاع عليها نستطيع تحديد تلك الأسباب والعوامل والتدليل عليها من كلامه، وهي ـ بعد توفيق الله تعالى وهدايته ـ:

١- فهمه الدقيق لحقيقة دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ورسالتها الإصلاحية:

من يطلع على خطبه وأحاديثه رحمه الله يجد فيها بيانًا واضحًا جليًّا لعقيدة التوحيد، ومعنى لا إله إلا الله، وما ينافيه من الشرك. وأسلوبه يدل على تمكنه التام من هذه المواضيع، وحفظه لأدلتها، وشرحه لبعض دقائق المسائل، مما يدل على ملازمته للعلماء، وأخذه عنهم. وكلامه كثير طيِّب في هذا الباب[٢٨]، لا يمكن نقله في هذا البحث الموجز، لكني أكتفي بنقل بعض كلامه في بيان منهجه الاعتقادي:

قال رحمه الله: «يسموننا بالوهابيين، ويسمون مذهبنا الوهابي، باعتبار أنه مذهب خاص، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهل الأغراض. نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه السلف الصالح، ونحن نحترم الأئمة الأربعة، ولا فرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة، كلهم محترمون في نظرنا. هذه هي العقيدة التي قام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يدعو إليها، وهذه هي عقيدتنا، وهي عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل، خالصة من كل شائبة منزهة من كل بدعة، فعقيدة التوحيد هذه هي التي ندعو إليها، وهي التي تنجينا مما نحن فيه من محن وأوصاب. أما التجديد الذي يحاول البعض إغراء الناس به بدعوى أنه ينجينا من آلامنا فهو لا يوصل إلى غاية ولا يدنينا من السعادة الأخروية»[٢٩].

ويقول في مناسبة أخرى: «قد جعلنا الله ـ أنا وآبائي وأجدادي ـ مبشرين ومعلمين بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح، لا نتقيد بمذهب دون آخر، ومتى وجدنا الدليل القوي في أي مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا إليه، وتمسكنا به، وأما

.....

(٢٨) راجع على سبيل المثال: «**المصحف والسيف: مجموعة من خطابات وكلمات وأحاديث ومذكرات الملك عبد العزيز آل سعود**»، جمع وإعداد: محيي الدين القابسي، دار الناصر، الرياض، الطبعة الثالثة، عند كلامه في شرح معنى الشهادة وتفسير الفاتحة ٩٥، و١١٧، ١٢٥ – ١٣٠.

(٢٩) «**المصحف والسيف**» ٥٢.

إذا لم نجد دليلًا قويًّا أخذنا بقول الإمام أحمد. فهذا كتاب «**الطحاوية**» في العقيدة الذي نقرأه وشرحه الأحناف، وهذا تفسير ابن كثير، وهو شافعيٌّ، ولكن بعض المسلمين تركوا سنة الرسول والسلف الصالح، واتبعوا أهواءهم»[٣٠].

لقد جعل الملك عبد العزيز هذه العقيدة والمنهج أساسًا لدولته الناشئة، فأعلن في التعليمات الأساسية للدولة، التي صدرت في الجريدة الرسمية يوم (١٣٤٥/٢/٢١هـ-١٩٢٦/٨/٣١م) ـ وهي أنظمة وقوانين ولوائح تُعرِّف بالدولة السعودية الحديثة، وشكلها ودستورها وتنظيماتها الإدارية، وهي أول نظام وضع لتنظيم الدولة ـ، أنَّ: «المملكة دولة ملكيَّة، شورية، إسلامية، مستقلة. إدارة الدولة بيد الملك، وهو مقيَّد بأحكام الشرع الإسلامي. أحكام الدولة مطابقة لما ورد في كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح».

٢- سلامة فطرته، وصفاء ذهنه، وخلو قلبه من المؤثرات الخارجية السيئة التي أحاطت بالأمة، وحفظه الله منها في بيئته العربية الأصيلة:

كلُّ هذا يُعرف من نشأته في قلب الجزيرة العربية التي لم يخرج منها إلى البلدان الأخرى، وحظي بتربية ورعاية والده الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله آل سعود (ت: ١٣٤٦/١٩٢٨)، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان على جانب من العلم، وفيه زهدٌ، وبعدٌ عن مظاهر الترف، وفي طبعه ميل إلى الهوادة، ولم يكن في يوم من الأيام مثير فتنة ولا ناقض عهد حتى مع أعدائه، وصنَّف كتاب: «**مناسك الحج على المذاهب الأربعة**»، بالتماس من ابنه عبد العزيز الذي كان يرجع إليه في كل ما يهم من الأمور، ويقف بين يديه إذا جلس موقف الخادم، إلى أن توفي رحمه الله[٣١].

ويصف الملك عبد العزيز نشأته الفطرية، فيقول: «**نحن أهل بادية**»[٣٢]، ويقول: «أنا

.....

(٣٠) «**المصحف والسيف**» ٨٦.

(٣١) «**الأعلام**» لخير الدين الزركلي (ت: ١٣٩٦)، دار العلم للملايين، بيروت: ط: ١٥/٢٠٠٢م، ٣/٣٢٢.

(٣٢) «**المصحف والسيف**» ٩٢.

رجل لا أعرف تزويق الكلام وتنميقه، لأنني لم أتخرَّج مثلكم من مدارس، وإنما أنا رجلٌ مسلمٌ، وأحبُّ أن أؤدي واجب النصح لإخواني المسلمين»[٣٣]. وربَّما استرسل في الكلام في شرح عقيدة التوحيد، فيستدرك قائلًا: «أنا لست بعالم، ولكن الحقَّ برهان، والذي نمشي عليه هو طريق السلف الصالح»[٣٤].

وهكذا أسس الملك عبد العزيز دولته على قواعد الشريعة وأحكامها، دون أن يقلِّد أي نظام من النظم التي سادت في البلاد العربية والإسلامية، التي ابتليت بالاستعمار الغربي، والغزو السياسي والثقافي والاجتماعي. وما زالت المملكة ـ منذ أن أقامها الملك عبد العزيز آل سعود، إلى الآن ـ تجعل الشريعة دستورها وقانونها الأساسيَّ، وقد استقرَّ ذلك في نفوس حكامها وشعبها، فاستقرت سياستها العامة في جميع شؤونها، وتمتع مجتمع المملكة بالاستقرار الاجتماعي والثقافي منذ عشرات السنين، وهو ما يميز المملكة عن غيرها من البلاد الإسلامية والعربية حتى الآن، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طـه][٣٥].

٣- إدراكه العميق ووعيه الحي بواقع العالم الإسلامي ومشكلاته والسبيل لعلاجها:

من يقرأ كلام ابن سعود في تصوير واقع المسلمين، وتشخيص دائهم، ووصف العلاج الناجع؛ يأخذه العجبُ كلُّه: كيف استطاع هذا الرجل الذي لم يتلقَّ تعليمًا في المدارس والجامعات، ولا جال في بلاد الإسلام شرقها وغربها؛ أن يكون عنده هذا التصور الدقيق المطابق للواقع، وهو واقع سيء مؤلم، لكن ابن سعود لا يعرف اليأس والقنوط، ولا يحتار في الأمور، بل يعرف طريق النجاح والفلاح من خلال ثقته بالله عزَّ وجلَّ، وتدينه الصادق الراسخ، وتمسكه بالمنهج السلفي.

.....

(٣٣) «**المصحف والسيف**» ١٢١.

(٣٤) «**المصحف والسيف**» ١١٧.

(٣٥) «**الملك عبد العزيز آل سعود: أمة في رجل**» لمعالي الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩، ١١١.

لقد تطرَّق الملك عبد العزيز إلى هذا الموضوع في أكثر من مناسبة، فمن ذلك هذه الكلمة الجامعة في تشخيص المشكلة وأسبابها وعلاجها، حيث يقول: «إن المسلمين متفرقون اليوم طرائق بسبب إهمالهم العمل بكتاب الله وسنة رسوله، ومن خطأ الرأي الذهاب إلى أن الأجانب هم سبب هذه التفرقة وهذه المصائب. إن سبب بلايانا من أنفسنا لا من الأجانب، يأتي أجنبي إلى بلد ما فيه مئات الألوف، بل الملايين من المسلمين فيعمل عمله بمفرده، فهل يعقل أن فردًا في مقدوره أن يؤثر على ملايين من الناس إذا لم يكن من هذه الملايين أعوان يساعدونه ويمدونه بآرائهم وأعمالهم؟ كلَّا ثم كلَّا، فهؤلاء الأعوان هم سبب بليتنا ومصيبتنا، أجل إن هؤلاء الأعوان هم أعداء الله وأعداء أنفسهم. إذن اللوم واقع على المسلمين وحدهم لا على الأجانب، إن البناء المتين لا يؤثر فيه شيء مهما حاول الهدَّامون هدمه، إذا لم تحدث فيه ثغرة تدخل فيه المعاول، وكذلك المسلمون لو كانوا متحدين متفقين لما كان في مقدور أحد خرق صفوفهم وتمزيق كلمتهم. في بلاد العرب والإسلام أناسٌ يساعدون الأجنبي على الإضرار بجزيرة العرب والإسلام وضربها في الصميم وإلحاق الأذى بنا، ولكن لن يتم لهم ذلك ـ إن شاء الله ـ وفينا عرق ينبض. أجل إن المسلمين هم مصدر البلاء الذي أصابهم، وأكثر ذلك يتأتى عن طريق أولئك الذين ينظرون إلى مصالحهم الخاصة، ومنافعهم الذاتية، فيدوسون في سبيلها كل شيء يعترضهم في الطريق. إن هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة وينامون على الوثير من الفراش لا يفكرون إلا في أنفسهم ولم يحسبوا لله حسابًا. إن المسلمين بخير إذا اتفقوا، وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله، ليتقدم المسلمون للعمل بذلك فيتفقون فيما بينهم على العمل بكتاب الله وسنة نبيه وبما جاء فيهما والدعوة إلى التوحيد الخالص، فإنني ـ حينذاك ـ أتقدم إليهم فأسير وإياهم جنبًا إلى جنب في كل عمل يعملونه، وفي كل حركة يقومون بها»[٣٦].

ومن هنا؛ فإن ابن سعود لم يصب بالغرور نتيجة الانتصارات التي حققها في جزيرة العرب، ولم يتهور في إعلان «**الخلافة**»، أو إعلان الجهاد على أمم الشرق والغرب، فهو

.....

(٣٦) «**المصحف والسيف**» من خطابه في الحج غرة ذي الحجة (١٣٤٧) ١١ مايو (١٩٢٩)، ٥٢ – ٥٤.

يقرأ الواقع بسياسة شرعية حكيمة نافذة، تعلو على العواطف والانفعالات، ويغلِّب جانبَ العمل في إطار الممكن شرعًا وقَدَرًا على الخطابات الرنانة الفارغة، وهو بصدق العربي الأصيل لا يحب التلاعب في مشاعر الناس، ولا استغلال عواطفهم. فاجأه رجلٌ مصريٌّ أزهريٌّ في محفل حافل بحجَّاج الأقطار بمطالبته بإعلان الجهاد لمحاربة الإنكليز والفرنسيِّين المعتدين على المسلمين، ذاكرًا عداوتهم لهم، فقال عبد العزيز ـ بهدوئه وحكمته ـ: «الإنكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا، لأنه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة، ولكن المصيبة التي لا عذر لأحد فيها أن المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم، وأَنا ـ والله! ـ لا أخاف الأجانب، وإنما أخاف المسلمين، فلو حاربتُ الإنكليزَ لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين»[٣٧].

لهذا فإن ابن سعود بسط سلطانه على ما أمكنه من جزيرة العرب، ولم يستمر في التوسع حتى لا يكون القتال بينه وبين المسلمين في تلك البلاد، ثم تحصل الاستعانة بغير المسلمين من مختلف الأطراف، فيعظم الشرُّ، ويصبح القتال قتال فتنةٍ لا قتال إعلاءٍ لكلمة الله وتوحيد لصفِّ المسلمين، وإن كان هذا هدفًا نبيلًا، مطلوبًا شرعًا، لكن لم تتهيأ أسبابه، فهو محال، أو شبيه بالمحال، لهذا نجده يقول: «يقولون: إنني أطلب أن أصير خليفة على المسلمين! أنا ما ادَّعيت هذا ولا طالبت به، لأن على الخليفة واجبًا هو تنفيذ أوامر الدين على كل فرد من أفراد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فهل هناك من رجل يستطيع أن ينفذ ذلك على المسلمين في هذه الأيام؟!»[٣٨].

لقد كان كثير من العلماء والمثقفين والسياسيين حيارى متهوكين أمام قضايا التمدن والنهضة، أما الملك عبد العزيز فتصوراته واضحة، وأجوبته حاضرة، فنجده يقول: «يقول كثيرٌ من المسلمين: يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة، وإِنَّ

.....

(٣٧) نقله محمد رشيد رضا في تعليقه على كتاب: «**لماذا تأخر المسلمون؟**» ٦٧، وذكره شكيب أرسلان نفسه مختصرًا.

(٣٨) «**المصحف والسيف**» ٨٥.

تأخرنا ناشئ عن عدم سيرِنا في هذا الطريق! وهذا ادعاءٌ باطلٌ، فالإسلام قد أمرنا بأخذ ما يفيدنا ويقوينا، على شرط ألا يفسد علينا عقائدنا وشيمنا، فإذا أردنا التقدم فيجب أن نتبع الإسلام، وإلا كان الشر كل الشر في اتباع غيره»[٣٩].

ويقول: «يقولون: التمدن والحرية! وهل هناك أعظم من التمدن الذي ورد في كتاب الله من اتباع كل خير، وتجنب كل شر؟ وهل هناك حرية أكثر من قوله ﷺ: «**لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقوى**»[٤٠].»[٤١].

ويقول: «وأما الأمور العصرية التي تعيننا وتفيدنا ويبيحها دين الإسلام، فنحن نأخذها، ونعمل بها، ونسعى في تعميمها، أما المنافي منها للإسلام فإننا ننبذه، ونسعى جهدنا في مقاومته، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولا مدنية أفضل ولا أحسن من مدنية الإسلام، ولا عزَّ لنا إلا بالتمسك به»[٤٢].

٤- صلته بعلماء الدعوة، وتقديره لهم، وإحياؤه لمكانتهم:

قامت الدولة السعودية منذ نشأتها على التحالف بين العلم والدعوة من جهة، والسلطة والدولة من جهة الأخرى، فكان الطرف الأول ممثلًا في الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والثاني ممثلًا في الإمام محمد بن سعود، حيث بايع الإمامُ الشيخَ على حمايته، ونصرة دعوته، فكان ذلك تمكينًا للعالم المصلح. وعلى هذا النهج سار أبناء الإمامين وذريتهم، «ولم يزل يخلف آل سعود بعضهم بعضًا، وآل الشيخ وعلماء نجد بعضهم بعضًا، فآل سعود يخلف بعضهم بعضًا في الإمامة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل

.....

(٣٩) «**المصحف والسيف**» ٩٦.

(٤٠) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩) من حديث أبي نضرة، قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق. وقال محققو «**المسند**»: إسناده صحيح.

(٤١) «**المصحف والسيف**» ١١٧ – ١١٨.

(٤٢) «**المصحف والسيف**» ٧١ – ٧٢. وله كلام نفيس في فتنة المسلمين بتطور الغرب وأهمية الاعتزاز بالدين: ٧٥ – ٧٧.

الله، وهكذا العلماء يخلف بعضهم بعضًا في الدعوة إلى الله والإرشاد إليه، والتوجيه إلى الحق»[٤٣]. فلا غرو ـ بعد هذا ـ أن يعرف الملك عبد العزيز قدر العلماء، ويحيي مكانتهم، ويجعل لهم مكان الصدارة في مجلسه، ولا يقطع أمرًا من دون مشورتهم، خاصة وأنَّه قد اختار الحكم بشريعة الله منهجًا لمملكته، والمرجع في معرفة الشريعة وتفاصيل أحكامها هم: العلماء، فلهم من المكانة والأهمية والمسؤولية والتأثير ما يدركه الملك عبد العزيز، ويعبِّر عنه بهذه الكلمات الصادقة: «أيها العلماء! اذكروا أن الله سيُوقفكم يوم العرض، وستسألون عما سُئلتم عنه اليوم، وعمَّا ائتمنَكم عليه المسلمون، فأبدوا الحقَّ في كل ما تسألون عنه، لا تبالوا بكبير ولا صغير، وبينوا ما أوجب الله للرعية على الراعي، وما أوجب للراعي على الرعية في أمر الدين والدنيا، وما تجب فيه طاعة ولي الأمر، وما تجب فيه معصيته، وإياكم وكتمان ما في صدوركم في أمر من الأمور التي تسألون عنها، ولكل من تكلم بالحقِّ عهد الله وميثاقه أنني لا أعاتبه، وأكون مسرورًا منه، وأني أُنفِّذ قوله الذي يجمع عليه العلماء، والقول الذي يقع الخلاف بينكم فيه ـ أيها العلماء! ـ؛ فإني أعمل فيه عمل السلف الصالح، إذ أقبلُ ما كان أقرب إلى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو قول أحد العلماء الأعلام، المعتمد عليهم، عند أهل السنة والجماعة، وإياكم ـ أيها العلماء! ـ أن تكتموا شيئًا من الحق تبتغون بذلك مرضاة وجهي، فمن كتم أمرًا يعتقد أَنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة، أظهروا الحق وبينوه، وتكلموا بما عندكم»[٤٤].

.....

(٤٣) «**الإمام محمد بن عبد الوهاب: دعوته وسيرته**» للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض: ١٤١١، ٥٥.

(٤٤) «**الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز**» لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٨٨، ١١٥. وراجع فصل (إحياء مكانة العلماء) في «**عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر**» لكمال الكيلاني، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩، ٦٥-٧١.

المنهجية الشاملة في إقامة الدين وخدمة الإسلام والمسلمين:

هكذا سار الملك عبد العزيز على نهج آبائه في التمسك بمنهج الدعوة الإصلاحية، ونصرتها، والتمكين لها، والدعوة إليها، فسخَّر جميع إمكانيات دولته الناشئة الفتية في خدمة هذه الدعوة على المستوى المحلي والعالمي، حتى وافته المنية سنة (١٣٧٣/١٩٥٣) رحمه الله تعالى وغفر له[٤٥]، ثم سار أبناؤه الملوك الكرام الأماجد: سعود، وفيصل، وخالد، وفهد، وعبد الله رحمهم الله تعالى، وخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان حفظه الله تعالى؛ ساروا على نهجه وطريقته، فكانوا أنصارًا للدعوة وأعوانًا لها، وبقي النهج السلفي ثابتًا، والشريعة معظمة، ومعالم الدين مصونة. وقد لخَّص الأمير الراحل نايف بن عبد العزيز رحمه الله تلك المسيرة الحافلة بكلمة جامعة فقال: «إن هذه الدولة المباركة قامت على المنهج السلفي السوي منذ تأسيسها على يد محمد بن سعود وتعاهده مع الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله، ولا تزال إلى يومنا هذا بفضل الله، وهي تعتز بذلك، وتدرك أن من يقدح في نهجها، أو يثير الشبهات والتهم حوله، فهو جاهل يستوجب بيان الحقيقة له. وهذه الدولة ستظل ـ بإذن الله ـ متبعة للمنهج السلفي القويم، ولن تحيد عنه ولن تتنازل، فهو مصدر عزها وتوفيقها ورفعتها»[٤٦].

في عهد الملك الراحل فهد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله، صدر: «**النظام الأساسيُّ للحكم**»، بأمره الملكي رقم: أ / ٩٠ بتاريخ: ١٤١٢/٨/٢٧هـ، وتضمن تحديدًا واضحًا للمرجعية العليا للدولة، فجاء فيه: «المملكة العربية السعودية دولة عربية إسلامية، ذات سيادة تامة، دينها الإسلام، ودستورها: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ...». وهذا يقضي بأن «**النظام الأساسي**» ليس دستورًا بالمعنى القانوني والسياسي المعاصر، بل هو نظام أو قانون محكوم بغيره، وهو: الكتاب والسنة، لهذا فإنه تمَّ اجتناب تسمية

.....

(٤٥) يراجع في هذا الدراسة القيمة: «**الدعوة في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله**»، للدكتور محمد بن ناصر الشثري أثابه الله، دار الحبيب، الرياض، الطبعة الرابعة: ١٤٢١/٢٠٠٠، في مجلدين.

(٤٦) «**جريدة الرياض**» الأربعاء ٣ صفر ١٤٣٣، الموافق: ٢٨ ديسمبر ٢٠١١، العدد: (١٥٨٩٢).

هذا النظام بالدستور، لأن مصطلح الدستور لا يدلُّ على ماهيَّة النظام المذكور. وإذا كان «**الدستور**» ضرورة عصرية؛ فقد تمَّ حصر مدلوله في الكتاب والسنة، قطعًا لكل لبس وإشكال(٤٧).

تضمن «**النظام الأساسي**» موادَّ مهمة فيما يتعلق بهوية الدولة وقيامهم بواجب إقامة الدين، والدعوة إلى الله تعالى، فمن ذلك ما ورد في:

«**المادة السابعة**: يستمد الحكم في المملكة العربية السعودية سلطته من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله. وهما الحاكمان على هذا النظام وجميع أنظمة الدولة.

المادة الثامنة: يقوم الحكم في المملكة العربية السعودية على أساس العدل، والشورى، والمساواة، وفق الشريعة الإسلامية.

المادة التاسعة: الأسرة، هي نواة المجتمع السعودي، ويُربى أفرادها على أساس العقيدة الإسلامية، وما تقتضيه من الولاء والطاعة لله، ولرسوله، ولأولي الأمر، واحترام النظام وتنفيذه، وحب الوطن والاعتزاز به وبتاريخه المجيد.

المادة العاشرة: تحرص الدولة على توثيق أواصر الأسرة، والحفاظ على قيمها العربية والإسلامية، ورعاية جميع أفرادها، وتوفير الظروف المناسبة لتنمية ملكاتهم وقدراتهم.

المادة الحادية عشرة: يقوم المجتمع السعودي على أساس من اعتصام أفراده بحبل الله، وتعاونهم على البر والتقوى، والتكافل فيما بينهم، وعدم تفرقهم.

المادة الثانية عشرة: تعزيز الوحدة الوطنية واجب، وتمنع الدولة كل ما يؤدي للفرقة والفتنة والانقسام.

المادة الثالثة عشرة: يهدف التعليم إلى غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النشء، وإكسابهم المعارف والمهارات، وتهيئتهم ليكونوا أعضاء نافعين في بناء مجتمعهم، محبين لوطنهم، معتزين بتاريخه.

.....

(٤٧) يراجع في هذا بحثنا الموسوم: «**هل أتاك نبأ الدستور**»، دار السنة، الرياض: ١٤٣٢.

المادة الثالثة والعشرون: تحمي الدولة عقيدة الإسلام، وتطبق شريعته، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم بواجب الدعوة إلى الله.

المادة الرابعة والعشرون: تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشريفين وخدمتهما، وتوفر الأمن والرعاية لقاصديهما، بما يُمكِن من أداء الحج والعمرة والزيارة بيسر وطمأنينة.

المادة الخامسة والعشرون: تحرِص الدولة على تحقيق آمال الأمة العربية والإسلامية في التضامن وتوحيد الكلمة، وعلى تقوية علاقاتها بالدول الصديقة.

المادة السادسة والعشرون: تحمي الدولة حقوق الإنسان، وفق الشريعة الإسلامية.

المادة الرابعة والثلاثون: الدفاع عن العقيدة الإسلامية، والمجتمع، والوطن على كل مواطن، ويُبين النظام أحكام الخدمة العسكرية.

المادة التاسعة والثلاثون: تلتزم وسائل الإعلام والنشر وجميع وسائل التعبير بالكلمة الطيبة، وبأنظمة الدولة، وتُسهم في تثقيف الأمة ودعم وحدتِها، ويُحظر ما يؤدي إلى الفتنة، أو الانقسام، أو يمس بأمن الدولة وعلاقاتها العامة، أو يُسيء إلى كرامة الإنسان وحقوقه، وتبين الأنظمة كيفية ذلك.

المادة الخامسة والأربعون: مصدر الإفتاء في المملكة العربية السعودية، كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، ويبين النظام ترتيب هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء واختصاصاتها.

المادة السادسة والأربعون: القضاء سلطة مستقلة، ولا سلطان على القضاة في قضائهم لغير سلطان الشريعة الإسلامية.

المادة الثامنة والأربعون: تُطبق المحاكم على القضايا المعروضة أمامها أحكام الشريعة الإسلامية، وفقاً لما دل عليه الكتاب والسنة، وما يُصدره ولي الأمر من أنظمة لا تتعارض مع الكتاب والسنة.

المادة الخامسة والخمسون: يقوم الملك بسياسة الأمة سياسة شرعية طبقًا لأحكام

الإسلام، ويُشرف على تطبيق الشريعة الإسلامية، والأنظمة، والسياسة العامة للدولة، وحماية البلاد والدفاع عنها»[٤٨].

لا يتسع المقام لذكر كلمات ملوك المملكة الكثيرة في تبني هذا المنهج وتأييده والتأكيد عليه[٤٩]، لكني أكتفي بالإشارة الموجزة إلى أعمالهم الجليلة، وإنجازاتهم المشهودة، وأقتصر على ما يتعلق بموضوع البحث، وهو إحياء الفهم الصحيح للإسلام ونشره في العالم، أما ما يتعلق بإقامة الدين، وتطبيق الشريعة، وخدمة الإسلام والمسلمين؛ فمجال واسعٌ جدًّا، خارج عن موضوع بحثنا.

أقول: لقد استخدم ملوك المملكة العربية السعودية كل السُّبل الممكنة لخدمة الدعوة الإسلامية الصحيحة، والخطاب الإسلامي القويم، خاصة بعد أن وسَّع الله على دولتهم باستخراج النفط، وتطور العمران، وتوفر الوسائل العصرية، فتنوعت الأساليب، وكثرت المشاريع، وتتابعت الإنجازات في مختلف المجالات والميادين، ومكَّنوا للعلماء، وهيئوا لهم الأسباب والإمكانات، لينطلقوا في عمل تجديدي شامل على مستوى الأمة، فكان من أبرز الوسائل:

١- طباعة كتب التوحيد والسنة، ونشرها في مختلف أنحاء العالم. وقد اهتمَّ الملك المؤسس رحمه الله بهذا الجانب في وقت مبكر، يوم كانت الدولة فقيرة وإمكانياتها

.....

(٤٨) وعندما أُعلن في العام الماضي عن «**رؤية المملكة العربية السعودية: ٢٠٣٠**»، كانت المرجعية الإسلامية الواضحة حاضرة في «**الرؤية**»، رغم أنها اقتصادية تنموية، وليست دينية، إلا أنها نصَّت في صدرها على ما يلي: «نحيا وفق مبادئنا الإسلامية: يمثل الإسلام ومبادئه منهج حياة لنا، وهو مرجعنا في كل أنظمتنا وأعمالنا وقراراتنا وتوجهاتنا. لقد أعزنا الله بالإسلام وبخدمة دينه، وتأسياً بهدي الإسلام في العمل والحث على إتقانه، وعملًا بقول نبينا الكريم ﷺ: «**إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتقنه**» [صحيح الجامع الصغير: ١٨٨٠]، ستكون نقطة انطلاقتنا نحو تحقيق هذه الرؤية هي العمل بتلك المبادئ، وسيكون منهج الوسطية والتسامح وقيم الإتقان والانضباط والعدالة والشفافيّة مرتكزاتنا الأساسية لتحقيق التنمية في شتَّى المجالات».

(٤٩) يراجع في هذا: «**مختارات من الخطب الملكية**»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩، في مجلدين.

محدودة، فأمر في سنة (١٣٣٥/١٩١٧) بطباعة أعداد كبيرة من الكتب الشرعية، واستمر على هذا النهج حتى وفاته، وكانت الطباعة تتم في بلاد الهند ومصر[٥٠]. وتتابع أبناؤه في الاهتمام بهذا الجانب، وكان من أبرز الأعمال الجليلة في هذا المجال طباعة: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله»، في (٣٧) مجلدًا، فيها مجلدان للفهارس الدقيقة، طُبع بأمر الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله في مطبعة الحكومة بالرياض، حيث بوشر بالطباعة سنة (١٣٨٠/١٩٦٠)، وتم طبعه كاملًا سنة (١٣٨٩/١٩٧٠)، فكان في إخراج هذه الموسوعة العلمية الإصلاحية الكبرى، وتيسير مادتها للعلماء وطلاب العلم، وإعادة طبعها مرارًا داخل المملكة وخارجها، وإهداء نسخها مجانًا لكثير منهم؛ أعظم الأثر في النهضة العلمية والدينية في مختلف بلاد المسلمين.

٢- التمكين للعلماء، وإبراز علمهم ودعوتهم من خلال تأسيس «**هيئة كبار العلماء**» سنة (١٣٩١/١٩٧١)، واللجنة الدائمة للإفتاء، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، فانتفع المسلمون في داخل المملكة وخارجها بجهودهم العلمية في التأليف والتدريس والخطابة والفتوى، خاصة في دروسهم في مجالس الحرمين الشريفين، كما سخَّرت لهم الدولة وسائل الإعلام، وأهم ذلك «**برنامج نور على الدرب**»، وهو برنامج إذاعيٌّ، بدأ بثه عام (١٣٩٢/١٩٧٢)، أي منذ (٤٥) عامًا، وما زال مستمرًا ـ ولله الحمد والمنَّة ـ، وهو برنامج استفتاء، يجيب فيه كبار العلماء على أسئلة المستفتين[٥١]. وقد لقي قبولًا وانتشارًا واسعًا بين المسلمين، يظهر ذلك من الأسئلة التي كانت تأتي للبرنامج من مختلف دول العالم، ومن أشهر العلماء الذي شاركوا في البرنامج مشاركات كثيرة: الشيخ صالح بن علي الغصون (ت: ١٤١٩)، والشيخ عبد

.....

(٥٠) راجع في هذا: «**طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبد العزيز: دراسة تحليلية وقائمة ببليوجرافية**» إعداد: عبد الرحمن بن عبد الله الشقير، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤٢٤.

(٥١) نشرت «**صحيفة تواصل الإلكترونية**» تقريرًا موجزًا عن البرنامج، بعنوان: «**برنامج «نور على الدرب».. في القلوب منذ ٤٠ عامًا**»، ١٣ ربيع الآخر ١٤٣٨هـ/ ١١ يناير ٢٠١٧م.

http://twasul.info/660596

العزيز بن عبد الله بن باز (ت: ١٤٢٠)، والشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١)، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الغديان (ت: ١٤٣١)، رحمهم الله تعالى. وقد أثنى الشيخ ابن باز رحمه الله على هذا البرنامج، وأوصى بالعناية به مرارًا، ومما قاله: «هذا البرنامج: نور على الدرب، فيه خير عظيم وفوائد كثيرة، في التوحيد وفي أحكام الشريعة، فأنا أوصي وأنصح جميع المسلمين أن يستمعوا هذا البرنامج في كل مكان، في هذه المملكة وفي خارجها، أنصح جميع المسلمين وجميع المكلفين أن يسمعوا هذا البرنامج، وأن يعتنوا به حتى يستفيدوا منه، وحتى يبلغوا غيرهم من إخوانهم من الرجال والنساء، وحتى يستفيدوا، وهو بحمد الله برنامج: «قال الله، قال رسوله»، ليس من الآراء، برنامج يبين فيه أهل العلم ما قاله الله ورسوله في توحيده وفي أحكام شريعته، نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق»(٥٢).

لم أقف على دراسة استكشافية عن أهمية هذا البرنامج، وأثره في نشر الدعوة السلفية في العالم، وتصحيح مفاهيم كثير من المسلمين، فهذا موضوع يستحق العناية والاهتمام، ومن خلال معرفتي الشخصية، وعلاقاتي الواسعة بالشخصيات الإسلامية البارزة في مختلف أنحاء العالم؛ أستطيع وصف هذا البرنامج بأنه كان ـ يوم كان للإذاعة أهميتها ـ أهمَّ منبرٍ إسلامي في العالم لنشر عقيدة التوحيد وتصحيح مفاهيم المسلمين، وأن ورود الأسئلة من البلاد القريبة والبعيدة ليدل على الثقة بعلماء المملكة والاطمئنان إلى منهجهم العلمي.

٣- الأثر البالغ لمنبري الحرمين الشريفين من خلال خطب الجمعة والأعياد، وكذلك خطبة يوم عرفة، فقد أسندت الخطابة في هذه المنابر العظيمة لأهل العلم الأكفاء، الذين تميزوا بالعناية بأصول الإسلام الكبرى، ومقاصده العظمى، في تقرير التوحيد لله عز وجل، وتحقيق الاتباع للنبي ﷺ، وإرشاد الأمة إلى الاجتماع على منبعي الهداية والفلاح والنجاح: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ونبذ مظاهر الشرك والبدعة،

(٥٢) «**فتاوى نور على الدرب**» للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جمعها الدكتور محمد بن سعد الشويعر، ٣٠١/١٣.

والتأكيد على الإخوة الإيمانية، والرابطة الإسلامية، التي تجمع المسلمين في مشارقها الأرض ومغاربها على هذه الأسس والمعاني الجليلة، لتسمو على التعصب والمذهبية والطائفية والتفرق والعصبية. تلك الخطب النافعة تصل بوسائل الإعلام المختلفة إلى جميع دول العالم، كما يبادر كثير من المهتمين إلى ترجمتها إلى لغات مختلفة.

٤- تأسيس الجامعات الإسلامية، وفتح أبوابها لأبناء المسلمين من جميع أنحاء العالم، حيث أمر الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله في سنة (١٣٨١/١٩٦١)، بتأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة[٥٣]، وتأسست جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض سنة (١٣٩٤/١٩٧٤)، وهي مؤسسة تعليمية كبرى، تتبعها كليات ومعاهد كثيرة في داخل المملكة وخارجها.

لقد اعتمدت هذه الجامعات منهج القرآن والسنة وطريقة السلف الصالح في العلم والتعليم والدعوة، فتخرج منها خلال هذه العقود الطويلة عشرات الآلاف من طلاب العلم من مختلف البلاد والأجناس واللغات، فلا تكاد تجد اليوم دولة من الدول، بل أكاد أقول: مدينة من المدن، في أي مكان في العالم؛ إلا وفيه داعية متخرج من جامعة سعودية، قائم على مسجد أو مركز أو جمعية في المكان الذي هو فيه[٥٤].

٥- العناية البالغة بالدعوة إلى الله تعالى والنصح والإرشاد للحجاج والمعتمرين، وتوزيع الكتب الشرعية النافعة عليهم، مترجمةً إلى لغاتهم.

.....

(٥٣) للوقوف على تفاصيل أعداد الخريجين وبلدانهم والكليات التي تخرجوا منها انظر: «**جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى الله تعالى في الخارج من خلال الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها في ١٣٨١/٣/٢٥هـ إلى ١٤١٤/٦/٣هـ**»: إعداد: عبد الله بن صالح العبود، رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية.

(٥٤) نشرت «**صحيفة المدينة السعودية**» في ٢٠١٧/١/١٥، تقريرًا عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ومما جاء فيه: «بلغ عدد خريجي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حتى نهاية العام الجامعي الماضي ١٤٣٧/١٤٣٦هـ: (٧٤) ألف خريج، يمثلون أكثر من (١٧٠) دولةً، وذلك على مدى (٥٣) عامًا من تخريج دفعتها الأولى في عام (١٣٨٤)، بعد تأسيسها في (١٣٨١)».

٦- مكاتب الدعوة في الخارج التي تتبع وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، وتحظى برعاية سفارات خادم الحرمين الشريفين، وتقوم بكفالة الدعاة، ودعم المراكز والمساجد، وتنظيم النشاطات العلمية والدعوية المختلفة.

نتائج وثمار تجديد الدعوة وإقامة الدين:

هذه الجهود العظيمة في إحياء وتجديد دعوة التوحيد، ونشر العلم في داخل المملكة وخارجها؛ أثمرت ثمارًا طيبة، وأدَّت إلى نتائج ملموسة في واقعنا المعاصر، حيث كانت من أعظم المؤثرات، وأقوى الأسباب في الأمور التالية:

١- تجديد دعوة التوحيد والسنة على مستوى الأمة، وانتشار العلم بين كثير من المسلمين بأهمية توحيد العبادة وضرورة مجانبة الشرك بجميع صوره وأشكاله. وتقوية معاني الإيمان والإخلاص والاحتساب في النفوس، وتعظيم شعائر الله، وأهمها ـ بعد الشهادتين ـ: الصلاة، بالمحافظة عليها، وإقامتها وفق سنة النبي ﷺ. وقد أدى هذا إلى الاهتمام بعلوم الكتاب والسنة، والتسابق في خدمة كتب السلف الصالح بالتحقيق والطباعة والنشر، وتغير أسلوب خطباء الجمعة من اعتماد الموضوعات والقصص والخرافات؛ إلى العناية بالقرآن وصحيح السنة، وإرشاد المسلمين إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

٢- وأدى ذلك إلى انحسار مظاهر الشرك والوثنية والسحر والشعوذة وأعمال الجاهلية بشكل كبير، يدركه كل مطلع بدقة على أحوال المسلمين الدينية خلال القرن الأخير، كما انحسر الخطاب الصوفي الخرافي الذي يعتمد على الأحاديث الموضوعة، والأخبار المكذوبة، والبدع الاعتقادية والتعبدية والسلوكية. وبالجملة: يمكن القول أن العناية بالعقيدة الصحيحة، والنِّفار من الشرك والبدعة؛ أصبحت ظاهرة حاضرة، وثقافة عامة، عند أكثر المسلمين، في مختلف البلدان.

٣- لقد ابتليت الأمة خلال المئة سنة الماضية بظهور الاتجاهات والأفكار والمناهج المخالفة لدين الإسلام، وفتن المسلمون بها فتنة عظيمة، وتأسست على مبادئها أحزاب

وجمعيات، وحصلت في كثير من الدولة المسلمة انقلابات سياسية، وتغيرات جذرية في أنظمة الحكم في السياسة والاجتماع والاقتصاد والموقف من الدين والأخلاق؛ فكانت التيارات والأحزاب: الماركسية الشيوعية أو الاشتراكية، والقومية العربية، والعلمانية، والليبرالية، والتغريب، والإلحاد. وتأسست من زبالات تلك الأفكار أحزاب كبرى، مثل حزب البعث العربي الاشتراكي الذي حكم عقودًا طويلة العراق وسورية. واستطاع رجالات تلك التيارات المنحرفة أن يسقطوا النظام الملكيَّ الوطنيَّ في مصر (١٩٥٢)، وفي العراق (١٩٥٨)، وفي ليبيا (١٩٦٩)، وحكمت بالعلمانية والتغريب في دول مسلمة، كالجزائر وتونس، أسوةً بما صنع مصطفى كمال في تركيا من تنحية الشريعة عن جميع ميادين الحياة، وإقامة جمهورية علمانية، على أسس العلمانية الغربية وقوانينها الوضعية.

إن هذه المصائب الكبرى التي نزلت بالأمة؛ لم تكن حوادث جزئية، ولا وقائع يسيرة عابرة، فقد أحدثت تغييرًا خطيرًا في هوية تلك الدول، وفي خصائصها الاجتماعية، وفي مناهجها الدينية والتعليمية والثقافية، وأثرت في عقائد أهلها وتدينهم وأخلاقهم، فقد فُتِنَ كثير منهم بهذه الأفكار الوافدة، وخُدِع عامَّتُهم بدعاياتها الكاذبة، وحصل في نفوسهم اضطرابٌ وقلقٌ، فنفر كثير منهم عن الدين، ومنهم من جاهر بجحود عقائده وشرائعه، وتركت الصلاة، وقلَّ روَّاد المساجد، وظهر السفور والتبرج والاختلاط والخمر، إلى غير ذلك من مظاهر الفساد.

كل تلك التيارات ظهرت في الأمة، وكل تلك الأصوات علت فيها، وكل تلك التغيرات نزلت بساحتها؛ والمملكة العربية السعودية هي هي، كالطود الشامخ، ثابتة على منهاج القرآن والسنة، والاعتزاز بالإسلام، وإقامة الشريعة، لم تتغير هويتها، ولا تلوَّن خطاب ملوكها، ولا تقلَّبت سياساتهم، ولا أصاب علماءها التخبط والحيرة. لقد مثلت المملكة ـ خلال المئة سنة الماضية ـ الحالة الثابتة المستقرة في قلب الأمة وقبلتها، ومثَّلت لأهل الغيرة الإسلامية، والتدين والتعظيم للشريعة؛ النموذج الصالح لإقامة الدين والدولة.

أما من جانب المملكة؛ فقد كان أثرها عظيمًا في مواجهة هذه الأفكار والتيارات، فقد تحطمت كلها على أسوارها العالية، وبذل علماؤها جهودهم في البيان والنصيحة والتحذير، ودفع الشبهات والأباطيل، وكان خطابهم من أعظم أسباب ترسيخ الإيمان في النفوس، والأخذ بأيدي المسلمين إلى صراط الله المستقيم، وطريقه القويم، ومكافحة زحف الإلحاد والعلمانية والتغريب.

يطول الحديث عن المناهج والدعوات المنحرفة التي كان للمملكة العربية السعودية ـ بموقفها الرسمي، وبجهود علمائها ـ الفضل الأكبر، والأثر الأبرز في مكافحتها، والتصدي لها، خاصة تلك التي تلبس لبوس الإسلام، كالحركة الخمينية التي تغلبت على السلطة في إيران (١٣٧٩/١٩٧٩)، وفتن بها كثير من الجماعات والقيادات الإسلامية. يمكن أن تفرد جهود المملكة وأثرها في مكافحة ومواجهة كل منهج وفكر وجماعة من التي ذكرناها ـ سواء كانت علمانية لا دينية أو إسلامية منحرفة ـ في بحوث مستقلة، فهذا مجال واسع جدًّا، لكني أختار هنا الحديث عن مواجهتها لمنهج التفسير السياسي للإسلام باعتباره من أهم المشكلات في واقع الدعوة الإسلامية المعاصرة.

المملكة العربية السعودية في مواجهة التفسير السياسي للإسلام:

في تلك المرحلة القلقة من تاريخ الأمة، وفي تلك البيئات الفكرية والسياسية والاجتماعية المضطربة؛ ظهرت ـ أيضًا ـ مناهج ودعوات تتخذ من نظرية «**التفسير السياسي للإسلام**» محورًا لعقيدتها وفكرها وبرنامجها في الإصلاح والتغيير. هذا الاتجاه عُرف بـ: «**الحركة الإسلامية**»، وكان أبرز تكويناتها التنظيمية: جماعة الإخوان المسلمون في مصر (١٩٢٨)، والجماعة الإسلامية في الهند وباكستان (١٩٤١).

تقوم نظرية «**التفسير السياسي للإسلام**» على عدِّ العقائد والعبادات وجميع شرائع الإسلام وسائل وأسبابًا لإقامة النظام السياسي الذي يحقِّقُ العدل المادي والسعادة الدنيوية بين البشر. «إنَّه يُفَسِّرَ الدِّينَ بتفسيرٍ جامعٍ، وصورةٍ كليَّةٍ؛ تكون فيه الناحيةُ السياسيةُ وحدةً أساسيَّةً للدِّين، لا يُعْرَفُ هدفُ الرسالة النبوية بدون السياسة، ولا يُفهَمُ المعنى الكامل للعقائد، ولا تَظهر أهميةُ الصلاة وسائر العبادات، ولا تُقطع مراحلُ

التَّقوى والإحسان، ولا يُعقَلُ الهدفُ مِنَ «**الإسراء والمعراج**» إلَّا بالسِّياسة، وجملةُ القول؛ فإنَّه بدون السِّياسة يبقى الدِّينُ كلُّه فارغًا، وغيرَ قابلٍ للفهم، كأَنَّه قد حُذِفَ منه ثلاثةُ أَرباعه»(٥٥).

ولمنظري الحركة الإسلامية، وقياداتها الفكرية، كلمات صريحة في التأصيل والتقرير لهذه النظرية في تفسير الدين، نذكر منها هذه الاقتباسات الموجزة من كتابي: «**مقدمة في تفسير الإسلام**»، ومن أراد التفصيل في التوثيق والمناقشة فليراجعه ـ غير مأمور ـ:

صرَّح حسن البنَّا بأنَّ العباداتِ وسائلُ لغيرها، فقال: «ثم أوضح الحقُّ تبارك وتعالى للناس ـ بعد ذلك ـ الرابطةَ بين التكاليف ـ من صلاةٍ وصومٍ ـ بالتكاليف الاجتماعية، وأن الأولى: وسيلةٌ للثانية، وأن العقيدة الصحيحة أساسهما معًا»(٥٦).

وقال أيضًا: «وهذه الصلاةُ، وتلك الزكاة، والحج، والصوم؛ إنَّما هي ـ كلُّها ـ تشريعات اجتماعية، يُراد بها توثيق الوحدة، وجمع الكلمة، وإزالة الفوارق، وكشف الحُجُب والموانع بين بني الإنسان. ومن هنا كانت دعوتنا ذات مراحل، نرجو أن تتحقَّق تباعًا، وأن نقطعها جميعًا، وأن نصل بعدها إلى الغاية»(٥٧).

وقال الدكتور محمد البهي ـ محدِّدًا مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام والغاية من دعوتهم وجهادهم ـ: «ورسالات الرسل هي لذلك: في تبصير الأفراد بمكان قيادة العقل في حياتهم، وبنتائج جنوح الغرائز من أضرارٍ نفسيَّة وبدنيَّة تؤذيهم وتقلقهم. وفي تبصير المستضعفين في الأرض بمكانهم في الحياة وباعتبارهم الإنساني، وبحقوقهم الفطرية في الحياة، مع مطالبة الأفراد بالاعتدال في الاستجابة لغرائزهم، ومطالبة المستضعفين بالثورة على الظلم والطغيان والاعتداء ضد الطغاة والأقوياء والمستبدِّين ... ورسالة السماء في عمومها ثورة على الباطل من أجل الحقِّ، وعلى الإضلال والغواية

.....

(٥٥) «**التفسير السياسي للدين**» لوحيد الدين خان، مركز دراسات تفسير الإسلام، بريطانيا: ١٤٣٥/٢٠١٤، ١٢٨.

(٥٦) «**مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**»، دار الدعوة، الإسكندرية: ١٤١٠، ٤٤، ٥١.

(٥٧) «**مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**» ١٣١-١٣٢.

من أجل الهداية. والمؤمنون برسالة الله هم جنود الثورة الإلهية يفدونها بأموالهم وأنفسهم»[٥٨].

وقال أبو الأعلى المودودي: «إنَّ الصلاة والزكاة والحج كلها للتربية، كما أنَّ دول العالم تقوم أولًا بتربية شعوبها للجيش والأعمال المدنيَّة ثم تستخدمهم فيها، كذلك الدِّينُ الإسلاميُّ يربِّي ـ بطريقةٍ خاصَّة ـ مَنْ يدخل فيه ويتجنَّدُ لخدمته، ثم يستخدمه للجهاد والحكومة الإلهيَّة».

وقال المودودي أيضًا: «إن الله قد أراد ببَعْثِهم أن يقيم في العالم نظام العدالة الاجتماعية على أساس ما أنزله عليهم من البيِّنات، وما أنعم عليهم في كتابه من الميزان، أي: نظام الحياة الإنسانية العادل»[٥٩].

وقال سيد قطب: «إنما أطلقتْ لفظةُ «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورةً من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون، صورةً لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنَّها تجيء بالتبعية لا بالأصالة!»[٦٠].

وقال: «والإسلام عدوُّ التبطُّل باسم العبادة والتديُّن؛ فالعبادة ليست وظيفة حياة، وليس لهذا إلا وقتها المعلوم»[٦١].

وقال محمد قطب: «وتوجيهاته «الروحيَّة الخالصة» ليست مقصودة لذاتها. العبادةُ الخالصة التي هي غاية الخلق كلِّهم من جنٍّ وإنسٍ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] ليست مقصودة لذاتها،... وإنما هو كرمٌ من الله سبحانه أن يجعل العبادة ـ التي هي غاية الخلق ـ هي الوسيلة لإصلاح النفوس، وإصلاح الحياة في الأرض، ثم كرمه سبحانه أن يثيب الناسَ على العبادة، وهي عملٌ يعمله الإنسان

.....

(٥٨) «**الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: مشكلات الحكم والتوجيه**» للدكتور محمد البهي، دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٩٨٢م، ٢١-٢٦، تحت عنوان: (**رسالة الإنسان على الأرض**).

(٥٩) «**نظرية الإسلام السياسية**» للمودودي، دار الفكر، دمشق: ١٩٦٧م، ٤٠.

(٦٠) «**في ظلال القرآن**» ١٩٠٢/٤.

(٦١) «**معركة الإسلام والرأسمالية**» ٥٢.

لنفسه، والله غنيٌّ عنه وعن العالمين!»[٦٢].

وقال الخميني: «كلُّ نبيٍّ من الأنبياء إنما جاء لإقامة العدل، وكان هدفُه هو تطبيقه في العالم، لكنَّه لم ينجح، وحتى خاتم الأنبياء (ص) الذي كان قد جاء لإصلاح البشر وتهذيبهم وتطبيق العدالة؛ فإنَّه هو ـ أيضًا ـ لم يُوفَّق، وإنَّ من سينجحُ بكلِّ معنى الكلمة، ويطبِّق العدالة في جميع أرجاء العالم: هو المهديُّ المنتظر»[٦٣].

وقال علي شريعتي في جعل الدين وسيلة لا غاية: «صفوة القول: أن ثمة منهجان في فهم الدين، ففي الإسلام يعدُّ الدِّينُ وسيلةً، وفي باقي الأديان يتَّحد الدِّينُ مع الهدف. وهذا أحد الفروق الأساسية بين إسلام القرن الأول وغيره»[٦٤].

فإذا كان الدين والشريعة وسيلة لغاية أخرى؛ فما هي تلك الغاية؟!

يقول شريعتي في بيانها: «إنها حركة ثورية لمواجهة وضعٍ اجتماعيٍّ طبقيٍّ فاسدٍ، يسوِّغُ لبعض الطبقات استغلال الطبقات الأخرى، وتهدف هذه الحركة إلى استبدال الوضع القائم بوضع آخر مثالي، وتحقيق هدف محدد للحياة، وهو: تحرير قوم من الأَسْر، وإرشادهم إلى الأرض الموعودة، وتأسيس مجتمع يقوم على دعامة العقيدة والرسالة الاجتماعية الرافضة لعبادة الطاغوت، والقضاء على الطواغيت الذين يبرِّرون شتَّى أنواع العنصرية والتمييز، ومن ثم إقرار مبدأ التوحيد لكي تتجلَّى فيه الوحدة البشرية، والعدالة الاجتماعية»[٦٥].

إنَّ هذه التقريرات لأعلام الحركة الإسلامية هي الأساس الفكري لمئات من الكُتَّاب والمفكِّرين والوعاظ والمثقَّفين الذين يتكلمون عن الإسلام والعبادة والرسالة

.....

(٦٢) «**منهج التربية الإسلامية**» لمحمد قطب، الجزء الأول في النظرية، دار الشروق، القاهرة وبيروت، الطبعة الرابعة عشرة: ١٤١٤/١٩٩٣، ٢٥-٢٦.

(٦٣) من خطابه إلى الشعب الإيراني بمناسبة الخامس عشر من شهر شعبان: ١٤٠٠، الموافق: ١٩٨٠/٦/٢٨، وبُثَّ من الإذاعة والتلفزيون، كما في «**مختارات من أحاديث وخطابات الإمام الخميني**»، طبع: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، قسم الشؤون الدولية، طهران، ٤٢/٢.

(٦٤) «**معرفة الإسلام**»، دار الأمير، بيروت: ٢٠٠٧م، ١٢٣-١٢٥.

(٦٥) «**دين ضدَّ الدين**»، دار الأمير، بيروت: ٢٠٠٧م، ٤١-٤٢.

والشريعة في وسائل الإعلام الحديثة، وقد ظهر أثرها فيهم بجلاء، وبدا واضحًا لكلِّ من يطَّلع على أساليبهم وخطابهم ودعوتهم أنَّهم يفسرون الإسلام تفسيرًا نفعيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، وأنهم يستخدمون أسلوبَ الوعظِ والإرشاد، ويوظفون السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لترسيخ هذا التفسير الجديد للدِّين.

لقد كان لبروز نظرية «**التفسير السياسي للإسلام**» أثرًا سيِّئًا على شباب الأمة، وأدى لظهور مفاسد عظيمة، أخطرها: الغلو في قضية النظام السياسي والعدل الدنيوي، وجعل الثورة والانقلاب السياسي غاية وهدفًا للمسلم المتدين، وجعل التدين الحقيقي الذي يراد به وجه الله والدار الآخرة وسيلة غير مقصودة لذاتها، فحصل الاستخفاف بالعلم الشرعي والعبادات المحضة والتدين الصادق، وجُند الشباب المسلم في التنظيمات السياسية المعارضة، وحرصت التنظيمات الحركية على عسكرة المجتمع من خلال المحاضن التربوية والمخيمات والدورات واللقاءات السرية أو المعلنة تحت أسماء مضللة، وظهر الغلو في التكفير، وتورط الإسلاميون في العنف والإرهاب، والتفجير والتخريب.

إن «**المملكة العربية السعودية**» بحكامها وعلمائها، ومناهجها التعليمية والدعوية، وخطابها الإسلامي الأصيل؛ كانت هي الصخرة الصلبة أمام هذا الانحراف الخطير في فهم الإسلام وتفسير مقاصده وغاياته، كما كانت هي ـ أيضًا ـ في مواجهة الانحرافات الأخرى التي ذكرناها، كالعلمانية والتغريب. لقد كان تركيز علماء المملكة على الأصل الأعظم، والمقصد الكلي الأكبر لدين الإسلام ـ وهو تحقيق العبودية لله تعالى، وإقامة أركان الإسلام، وإخلاص العمل لله وطلب مرضاته والنجاة في الآخرة ـ كفيلًا بمواجهة التفسير السياسي للإسلام، وهدم مقولاته وتقريراته التي تقلب أصول الإسلام، وتتلاعب بمقاصده، فتجعل المقصود أصالة مقصودًا بالتبعية، والمقصود بالتبعية مقصودًا أصالة.

لما عمل هذا التفسير عمله في الأمة، وظهرت مفاسده، وعظمت شروره؛ بما نتج عنه من فتن التطرف والإرهاب، وحمل السلاح ضد المجتمعات المسلمة، واللجوء إلى

التفجيرات والاغتيالات والعمليات الانتحارية؛ كان صوت علماء السعودية هو الصوت الأعلى والأقوى والأوضح في مواجهة ومحاربة كل المفاسد والشرور والأضرار التي نتجت ـ بالدرجة الأولى ـ عن نظرية التفسير السياسي، فمن ذلك:

١- مواجهة فتنة الغلو في التكفير واستحلال الدماء والافتئات على ولاة الأمر والقضاء(٦٦).

٢- النهي والتحذير من الخروج على الحكام، ومن الثورات والانقلابات، والعنف والإرهاب(٦٧).

٣- فتواهم بتحريم المظاهرات والاعتصامات، وعدِّها من مسالك أهل الجاهلية والفساد(٦٨).

٤- تحريم العمليات الانتحارية منذ أول ظهورها، ويسجل التاريخ أن أول عالم جاهر بفتواه في تحريم العمليات الانتحارية، وإن كانت ضدَّ اليهود المعتدين الغاصبين، هو الإمام الراحل سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله. أفتى بذلك بجزم، وحزم، وقطعٍ، وشجاعة نادرة في مواجهة السفهاء والغوغاء ومن يبتغي رضاهم ويفتي حسب أهوائهم من المنتسبين إلى العلم(٦٩). ومات الشيخ ابن باز، وظهر للناس

.....

(٦٦) يراجع للتفصيل والتوثيق: «**فتاوى الأئمة في النوازل المدلهمة، وتبرئة دعوة وأتباع محمد بن عبد الوهاب من تهمة التطرف والإرهاب**»، جمع وترتيب: محمد بن حسين القحطاني، الرياض: ١٤٢٤/٢٠٠٣.

(٦٧) يراجع للتفصيل والتوثيق: «**موقف المملكة العربية السعودية من الإرهاب: دراسة شرعية علمية وثائقية**»، تأليف وإعداد: معالي الأستاذ الدكتور الشيخ سليمان بن عبد الله أبا الخيل، الرياض: ١٤٤٢/٢٠٠٣، في مجلدين.

(٦٨) «مجموع فتاوى الشيخ ابن باز» ٤١٨/٦، ٣٤٤/٧، ١٦٨/٨، ٢٤٥/٨، ١٦٤/٢٧، «**فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء**» ٣٦٧/١٥.

(٦٩) سُئل: ما حكم من يلغِّمُ نفسه ليقتل بذلك مجموعة من اليهود؟ فأجاب رحمه الله: «الذي أرى [وقد نبَّهنا له غير مرَّة]: أنَّه لا يصحُّ، لأنَّه قتلٌ للنَّفْس، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النِّساء: ٢٩]، والنبيُّ ﷺ يقول: «**مَن قتل نفسه بشيءٍ عُذِّب به يوم القيامة**»، يسعَى في هدايتهم، وإذا شُرِعَ الجهاد جاهد مع المسلمين، وإِنْ قُتلَ؛ فالحمد لله، أمَّا أنَّه يقتلُ نفسه: يحطُّ اللُّغم في نفسه حتَّى يُقتل معهم؛ هذا

أجمعين صحة قوله، وبعد نظره، ونصيحته لأمته، رحمه الله وأعلى درجته.

إن هذا المبحث يكشف عن حقيقة مرَّة؛ هي أن أصحاب الاتجاهات الفكرية المنحرفة، والانتماءات الحزبية والحركية، ترى في نجاح الدعوة الإصلاحية السلفية الذي تمثل في قيام الدولة السعودية تجديدًا للدين، وإصلاحًا للدنيا؛ منافسًا حقيقيًّا، بل برهانًا واقعيًّا على عدم حاجة الأمة لمشاريعها، خاصة مع إخفاقاتها الكبيرة، وتورطها بمسالك التطرف والإرهاب ـ منذ تأسيس التنظيم السري المسلَّح في مصر(٧٠)، وحتى تأييد ثورات الخراب العربيِّ . كما أنها ترى في الخطاب الديني لهذه الدولة تسفيهًا لنظريتها في تفسير الإسلام، ومواجهة لامتدادها بين المسلمين. لهذه الأسباب؛ فإن الجماعات والتنظيمات التي تتبنى التفسير السياسي للإسلام؛ تجعل في رأس أولويات ومهماتها: توجيه ألسنة نقدها وتشنيعها، وسهام كيدها وغدرها، ضدَّ المملكة العربية السعودية، رغم أنها ترفع شعار الدعوة لتطبيق الشريعة، والعمل لعز الإسلام والمسلمين. إن الحكم الظاهري يقضي في هذا المقام: أن تجعل تلك التنظيمات هذه

.....

غلطٌ لا يجوز، أو يطعنَ نفسه معهم؛ لا يجوزُ، ولكن يجاهدُ حيثُ شرع الجهاد مع المسلمين. أمَّا عملُ أبناء فلسطين هذا غلطٌ، ما يصلحُ، إنَّما الواجبُ عليهم الدَّعوة إلى الله، والتعليم، والإرشاد، والنصيحة؛ من دون هذا العمل». قيَّدته من فتوى مسجلة بصوت الشيخ رحمه الله منشورة على الشبكة العالمية (الانترنت)، وهو في كتاب «**الفتاوى الشرعية في القضايا العصرية**» ١٢٥، و«**فتاوى الأئمة في النوازل المدلهمة**» ص ١٧٩، ومنهما نقلتُ ما جعلته بين قوسين معقوفتين؛ لأني لم أتبينه من صوت سماحة الإمام الراحل رحمه الله.

(٧٠) أسسه حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمون، في سنة (١٩٤٠)، وقام التنظيم بعمليات اغتيال وتفجير في مصر، من ذلك ما ذكره علي عشماوي ـ وكان آخر قادة التنظيم الخاص ـ في مذكراته: «**التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين**»، مركز ابن خلدون، القاهرة: ٢٠٠٦، ٦٣: «أن الإخوان ابتكروا الحزام الناسف عام ١٩٥٤، وكان أول من تطوع لاستعماله هو الأخ نصير، وهذا الأسلوب تطور بعد ذلك ليصبح القنابل البشرية والمنتحرين والأجسام المفخخة،... أما الأسلوب الآخر: فهو السيارات المفخخة، ابتكره أحد أقسام الإخوان، وهو قسم الوحدات، الذي يشرف عليه صلاح شادي، فقام بتفجير عربة محملة بالمتفجرات في حارة اليهود بالقاهرة في ١٩٤٨/٦/٥، ثم أتبعها بتفجير عربة أخرى في نفس المكان، وهو حارة اليهود، في ١٩٤٨/٧/١٩، وقد كان هذا في شهر رمضان!».

الدولة في آخر قائمة أعدائها! أما أن تجعلها في أول قائمة أعدائها ـ إن كان لها أعداء غيرها! ـ فلأنَّ العداء يرجع إلى اختلاف كليٍّ في تفسير الدين. هذا الاختلاف هو الذي حمل ابن لادن والظواهري على استهداف المملكة بالعمليات الإرهابية الشنيعة سنوات عديدة، حتى قطع الله دابرهم بلطفه وقوته.

إن هذه الحقيقة إشكالية محورية فيما تواجهه المملكة من إساءة وتشويه من قبل الشخصيات أو الجماعات الإسلامية التي يُفترض فيها أن تفرح، بل أن تؤيد وتناصر دولة قائمة على أساس صفاء العقيدة وتحكيم الشريعة، لكنها ـ للأسف ـ تنكرتْ وجحدتْ وناكفتْ، وبذلت جهودًا عظيمة لتجهيل الشباب المسلم بحقيقة الدعوة الإصلاحية السلفية التي أطلقها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، وناصرها آل سعود الأمجاد، إمامًا بعد إمام، وملكًا بعد ملكٍ، فكانت هذه الدولة من أعظم معالم ظهور الإسلام، وإعزاز الدين، وبذل الجهود لنشره في العالم؛ بما لا مثيل له منذ القرون الإسلامية الأولى المشهود لها بالخيرية والأوليَّة.

وقد أحسن معالي الشيخ العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله في تصوير بواعث هذا الموقف، فقال: «المملكة قائمةٌ بشأن الإسلام، وبرنامج «**جماعة الإخوان**» لو تحقَّق كلُّه إسلاميًّا[٧١] فهو يمثل بعضًا مما يطبق في المملكة، ولكن وجود المنافسة المتعلقة برغبتهم في إنشاء دولة لا بدَّ أن يطعنوا في النموذج المنافس لهم في بناء الدولة هي السعودية، ويجدون لزامًا عليهم أن يطعنوا في الدولة السعودية ويشككوا فيها، لأنها تمثل النموذج الذي يحرجهم، ولا يستطيعون أن يكونوا مثله، ونحن لدينا بناء دولة منظمة بالمفهوم المتكامل، فيها كل عناصرها، والمملكة مُحرِجة لهم في شيء مهمٍّ؛ وهو أنها متقدِّمة ومحافظة، والتحديث فيها لا بد أن يكون في إطار الشريعة، والشريعة جاءت من أجل مصلحة الناس، وسعة للناس، وكل عصر فيه ما

.....

(٧١) (**إسلاميًّا**) قيدٌ مقصود من معالي الشيخ، لأنهم كانوا يدَّعون ذلك في الظاهر، وصاروا ـ أخيرًا ـ يصرحون بتبنِّي الديمقراطية ـ بل حتى العلمانية ـ منهجًا لهم.

يناسبه، ولكن في إطار ثوابتنا»[٧٢].

إذن؛ لا بدَّ من إبراز جهود المملكة، وتوثيقها، والتعريف بها على وجه التفصيل، ولا بدَّ ـ أيضًا ـ أن تبرز تلك الجهود في إطار الأساس الذي قامت عليه المملكة، وهو نصرة الدعوة الإصلاحية التجديدية، والقيام بأمر الدين والشريعة والدعوة إلى الله تعالى، فليست جهودها وإنجازاتها أعمالًا جزئية، ولا اجتهادات مبعثرة، ولا مواقف عابرة، بل تعبيرًا عن عقيدتها ومنهجها ورسالتها.

هذه مسؤولية دينية وتربوية لنقل حقائق التاريخ إلى الأجيال، وتوثيق صلتهم بإنجازات أعلام أمتهم من المصلحين والمجددين، حتى يعرفوا قدر نعمة الله تعالى وفضله عليهم، وقد صدق خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود حين قال ـ أيَّده الله وسدَّده ـ: «يجب على شبابنا أن يعرفوا كيف تكونت هذه الوحدة المبنية على العقيدة الإسلامية؛ وحدةً عربيةً إسلاميةً»[٧٣].

والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

.....

(٧٢) «**جريدة الرياض**» السبت ١٤٣٦/٨/١٢، الموافق: ٢٠١٥/٦/١٠، العدد: (١٧١٤١).

(٧٣) «**جريدة الرياض**» الأحد ١٤٣٣/٣/٢٧، الموافق: ٢٠١٢/٢/١٩، العدد: (١٥٩٤٥).

مصادر البحث

مصادر البحث:

١) «**الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**»، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٣٩٦/١٩٧٦.

٢) «**الأَعلام**» لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت: ط: ١٥/٢٠٠٢م.

٣) «**الإمام محمد بن عبد الوهاب: دعوته وسيرته**» للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض: ١٤١١.

٤) «**الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى**» للدكتور عبد الرحمن بن علي العريني، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩.

٥) «**البداية والنهاية**» لابن كثير، دار هجر، القاهرة: ١٤٢٤.

٦) «**تيسير العزيز الحميد**» للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، دار الصميعي، الرياض: ١٤٢٨.

٧) «**التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين**»، مركز ابن خلدون، القاهرة: ٢٠٠٦.

٨) «**التفسير السياسي للدين**» لوحيد الدين خان، مركز دراسات تفسير الإسلام، بريطانيا: ١٤٣٥/٢٠١٤.

٩) «**جريدة الرياض**» الأربعاء ٣ صفر ١٤٣٣، الموافق: ٢٨ ديسمبر ٢٠١١، العدد: (١٥٨٩٢).

١٠) «**جريدة الرياض**» السبت ١٤٣٦/٨/١٢، الموافق: ٢٠١٥/٦/١٠، العدد: (١٧١٤١).

١١) «**جريدة الرياض**» الأحد ١٤٣٣/٣/٢٧، الموافق: ٢٠١٢/٢/١٩، العدد: (١٥٩٤٥).

١٢) «**جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى الله تعالى في الخارج من خلال الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها في ١٣٨١/٣/٢٥هـإلى**

١٤١٤/٦/٣هـ»: إعداد: عبد الله بن صالح العبود، رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية.

١٣) «**حاضر العالم الإسلامي**»، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق: أمير البيان شكيب أرسلان، الطبعة الرابعة: ١٣٩٤/١٩٧٣.

١٤) «**دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية في الدولة العثمانية قبل ظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وقيام الدولة السعودية**»، إعداد: محمد داود كوري، دار اللؤلؤة، بيروت: ١٤٣٨.

١٥) «**دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة وموقف الخصوم منها**»، للشيخ صلاح مقبول أحمد، دار الأثير، الكويت: ١٤١٦.

١٦) «**الدعوة في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله**»، للدكتور محمد بن ناصر الشثري، دار الحبيب الرياض، الطبعة الرابعة: ١٤٢١/٢٠٠٠.

١٧) «**دين ضدَّ الدين**»، دار الأمير، بيروت: ٢٠٠٧م.

١٨) «**صحيفة تواصل الإلكترونية**» تقرير موجز بعنوان: «برنامج «نور على الدرب» في القلوب منذ ٤٠ عامًا»، ١٣ ربيع الآخر ١٤٣٨هـ/ ١١ يناير ٢٠١٧م.

١٩) «**طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبد العزيز: دراسة تحليلية وقائمة ببليوجرافية**» إعداد: عبد الرحمن بن عبد الله الشقير، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤٢٤.

٢٠) «**عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر**» لكمال الكيلاني، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩.

٢١) «**عنوان المجد في تاريخ نجد**» لابن بشر النجدي، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤٠٢.

٢٢) «**فتاوى نور على الدرب**» للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جمعها الدكتور محمد بن سعد الشويعر.

٢٣) «**فتاوى الأئمة في النوازل المدلهمة، وتبرئة دعوة وأتباع محمد بن عبد الوهاب من تهمة التطرف والإرهاب**»، جمع وترتيب: محمد بن حسين القحطاني، الرياض: ١٤٢٤/٢٠٠٣.

٢٤) «**الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: مشكلات الحكم والتوجيه**» للدكتور محمد البهي، دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٩٨٢م.

٢٥) «**كتاب التوحيد**»، تحقيق: د. دغش بن شبيب العجمي، مكتبة أهل الأثر، الكويت: ١٤٣٥.

٢٦) «**الكليات**» لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٩.

٢٧) «**لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟**»، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٨) «**موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين**»، للدكتور رفيق العجم، مكتبة لبنان، بيروت: ١٩٩٨.

٢٩) «**معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع**»، لطوني بينيت وزميلاه، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت: ٢٠٠٥.

٣٠) «**مقدمة في تفسير الإسلام**»، مركز دراسات تفسير الإسلام، بريطانيا: ١٤٣٨.

٣١) «**مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب**»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٣٢) «**مختارات من الخطب الملكية**»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩.

٣٣) «**مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**»، دار الدعوة، الإسكندرية: ١٤١٠.

٣٤) «**منهج التربية الإسلامية**» لمحمد قطب، الجزء الأول في النظرية، دار الشروق،

القاهرة وبيروت، الطبعة الرابعة عشرة: ١٤١٤/١٩٩٣.

٣٥) «**مختارات من أحاديث وخطابات الإمام الخميني**»، طبع: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، قسم الشؤون الدولية، طهران.

٣٦) «**معرفة الإسلام**»، دار الأمير، بيروت: ٢٠٠٧م.

٣٧) «**موقف المملكة العربية السعودية من الإرهاب: دراسة شرعية علمية وثائقية**»، تأليف وإعداد: أ.د. سليمان بن عبد الله أبا الخيل، الرياض: ١٤٤٢/٢٠٠٣.

٣٨) «**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**» للفيُّومي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، د. ت.

٣٩) «**المصحف والسيف: مجموعة من خطابات وكلمات وأحاديث ومذكرات الملك عبد العزيز آل سعود**»، جمع وإعداد: محيي الدين القابسي، دار الناصر، الرياض، الطبعة الثالثة.

٤٠) «**الملك عبد العزيز آل سعود: أمة في رجل**» لمعالي الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٤١٩.

٤١) «**نظرية الإسلام السياسية**» للمودودي، دار الفكر، دمشق: ١٩٦٧م.

٤٢) «**هل أتاك نبأ الدستور**»، عبد الحق التركماني، دار السنة، الرياض: ١٤٣٢.

٤٣) «**وسائل التحقيق ورسائل التوفيق**»، تحقيق وتقديم: د. بكري علاء الدين، دار نينوى، دمشق: ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م.

٤٤) «**الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز**» لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٨٨.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مدخل	٧
مفهوم الخطاب الديني	٧
مفهوم تفسير الإسلام	٨
جلاء تفسير الإسلام في الخطاب القرآني والدعوة المحمدية	٩
دخول النقص والخلل على المسلمين	١٢
محمد بن عبد الوهاب وتفسير التوحيد والإسلام	١٧
الملك عبد العزيز وتجديد الدعوة والدولة	٢٠
رسالة واضحة في زمن الاضطراب والحيرة	٢٢
الملك عبد العزيز بصيرة في الدعوة ومعرفة بالمهمة	٢٤
الأسباب والعوامل التي كانت وراء إقامة الملك عبد العزيز آل سعود للدولة السعودية	٢٤
١- فهمه الدقيق لحقيقة دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ورسالتها الإصلاحية:	٢٤
٢- سلامة فطرته، وصفاء ذهنه، وخلو قلبه من المؤثرات الخارجية السيئة التي أحاطت بالأمة، وحفظه الله منها في بيئته العربية الأصيلة:	٢٦
٣- إدراكه العميق ووعيه الحي بواقع العالم الإسلامي ومشكلاته والسبيل لعلاجها:	٢٧
٤- صلته بعلماء الدعوة، وتقديره لهم، وإحياؤه لمكانتهم:	٣٠
المنهجية الشاملة في إقامة الدين وخدمة الإسلام والمسلمين	٣٢
نتائج وثمار تجديد الدعوة وإقامة الدين	٣٩
المملكة العربية السعودية في مواجهة التفسير السياسي للإسلام	٤١
المصادر	٥٣
الفهرس	٥٧